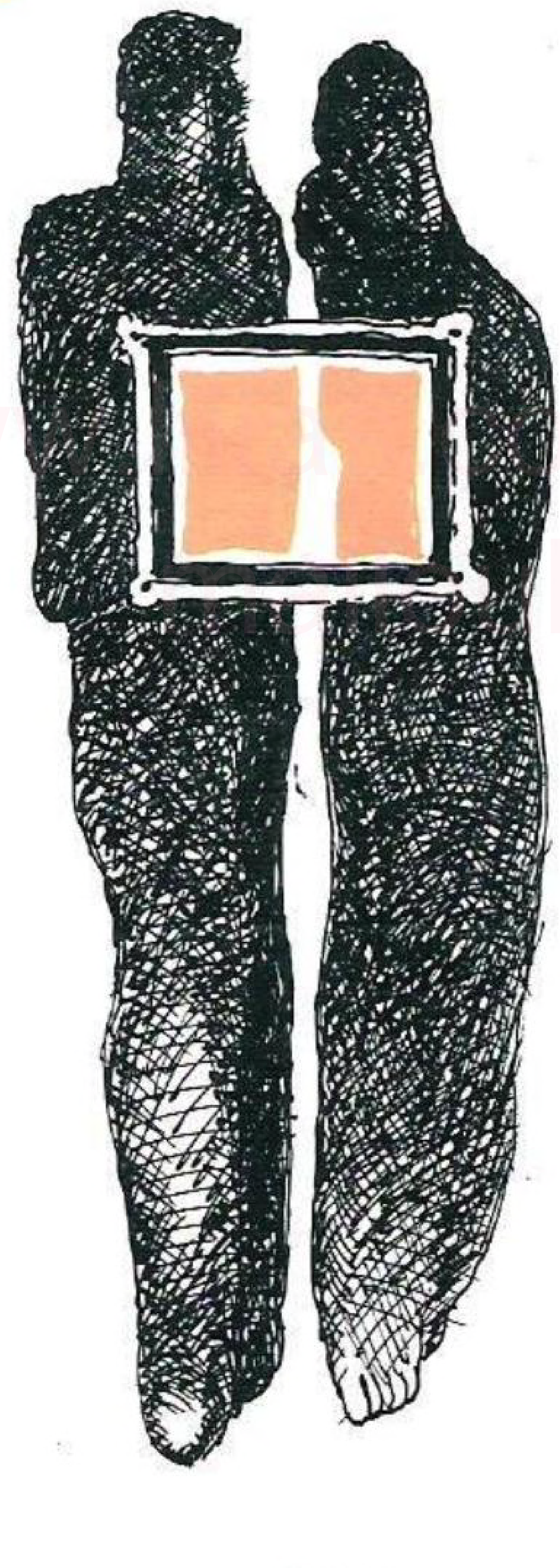
صبري موسى

حادث النصف متر



التنوير

حادث النصف متر

* **الطبعة العربية الأولى ١٩٨٢**

دار التنوير للطباعة والنشر . ص . ب **٦٤٩٩ - ١١٣**

بيروت - لبنان . الصنوبرة - أول نزلة اللّبان - بناية عساف .

* **الناشر :**

دار المثلث للتصميم والطباعة والنشر . ص . ب **٥٨٠٣ - ١١٣**

بيروت - لبنان . هاتف **٣٤٥٥٧١** تلكس : دِلتا **٢٠٦٣٩** .

* **التنفيذ الفني :** دار المثلث ش . م . م .

صبري موسى

حادث النصف متر

الشروق

الرسوم الداخلية : ايرما كامل

تّمت المسألة بطريقة
متحضرة محاطة بكل مظاهر
الكبرياء والعظمة.

كـان طويـلاً، فـانحنى
وهو يقدِّم لي نفسـه... ثم
طـلب مني أن أبـتعـد عـن
حبيبتي لأنه سيتزوجها!

لم أكنْ أعرفه... لكن
حبيبتي كانت قد تعـوّدت في
الأيام الأخيرة أن تنقنق باسمه
في لذة، كأنما تهددني به..

وقد سارع فأخبرني أنه
يتشـرّف بلقـائي بنـاءً عـلى
رغبتهـا، فـأخفيت مخـالبي
وشـددت عـلى يـده..
وأحكمت قناع الكبريـاء على
وجهي وأنا أتمنى لهما السعادة
معاً.

وسرّني جداً أن أكون
متحضراً وعصرياً إلى هذا
الحد!!



ـ ١ ـ

التاريخ السري لرجل عادي

أنا رجل عادي على وجه التقريب...

وجميع غرائزي تطلّ برأسها من داخلي في حذرٍ وهي ترمق قوانين المجتمع بنصف عين.

ولكي نكون على وفاق أحب أن تفهموا أنه لا خبرة لي بالحكايات... إنني أحدثكم وأمامي نصف زجاجة من خمر نسائية بَيضاء يسقونها للتلميذات في أمريكا... وبعض المطر قد سقط في أول المساء، فبلل زجاج نافذتي وفي مثل هذا الجو ليس في نيتي أن أخدعكم.

عيناي لونهما أزرق. وشعري كأنه محروق من الشمس. ووجهي وسيم.. ورغم ذلك فإنني أبدو للوهلة الأولى ريفياً ثقيل الظل.

وقد ولِدتُ في طبقة اجتماعية لا تميل إلى تربية الكلاب...

يمكنكم ادراك ما أقصده إذا تذكرتم أن الطبقة السفلى في مجتمع ما، تولد عادة في بيئة صالحة لنمو هذه الحيوانات المتواضعة...

أمّا الطبقة العليا المدللة فإنها غالباً ما تكون في حاجة إلى مخلوق حقيقي دافىء. تمارس فيه غريزة الشفقة... فتختار الكلاب، لأنها لا تعرف كيف تسيء استغلال هذه الشفقة.. وتظلُّ دائمًا حيوانات متواضعة!

والطبقة التي بين هاتين الطبقتين، سكانها فرديون شديدو الأنانية، لا يهتمون بشيء سوى ذواتهم.. إنهم يواصلون التسلّق.. زاحفين في التواءٍ وخبث على أعتاب الطبقة العليا بينما القلق يطحنهم، لأن الرعب من السقوط في الطبقة السفلى لا يزايلهم لحظة واحدة.. وفي مثل تلك الحال المتوترة لا يجد الانسان وقتاً لتربية الكلاب..!

في هذه الطبقة الأخيرة إذنْ.. التي لا تستطيع أن تعطي شفقتها للحيوانات المتواضعة... والتي تُصاب بالجنون إذا فقدت شيئاً تملكه، ولِدتُ أنا.. أنا الأزرق العينين الذي ـ ذات صباح خريفي حزين البهجة ـ انحنى أمامه رجل طويل لا يعرفه.. وطلب منه بتواضعٍ واضح الافتعال، أن يتنازل له عن حبيبته.. ليتزوجها!

ويعلم الله إنْ كان سيتزوجها فعلاً أم أنه يلعب بتلك الورقة العتيقة المتآكلة.. ليكسب بعض الوقت!

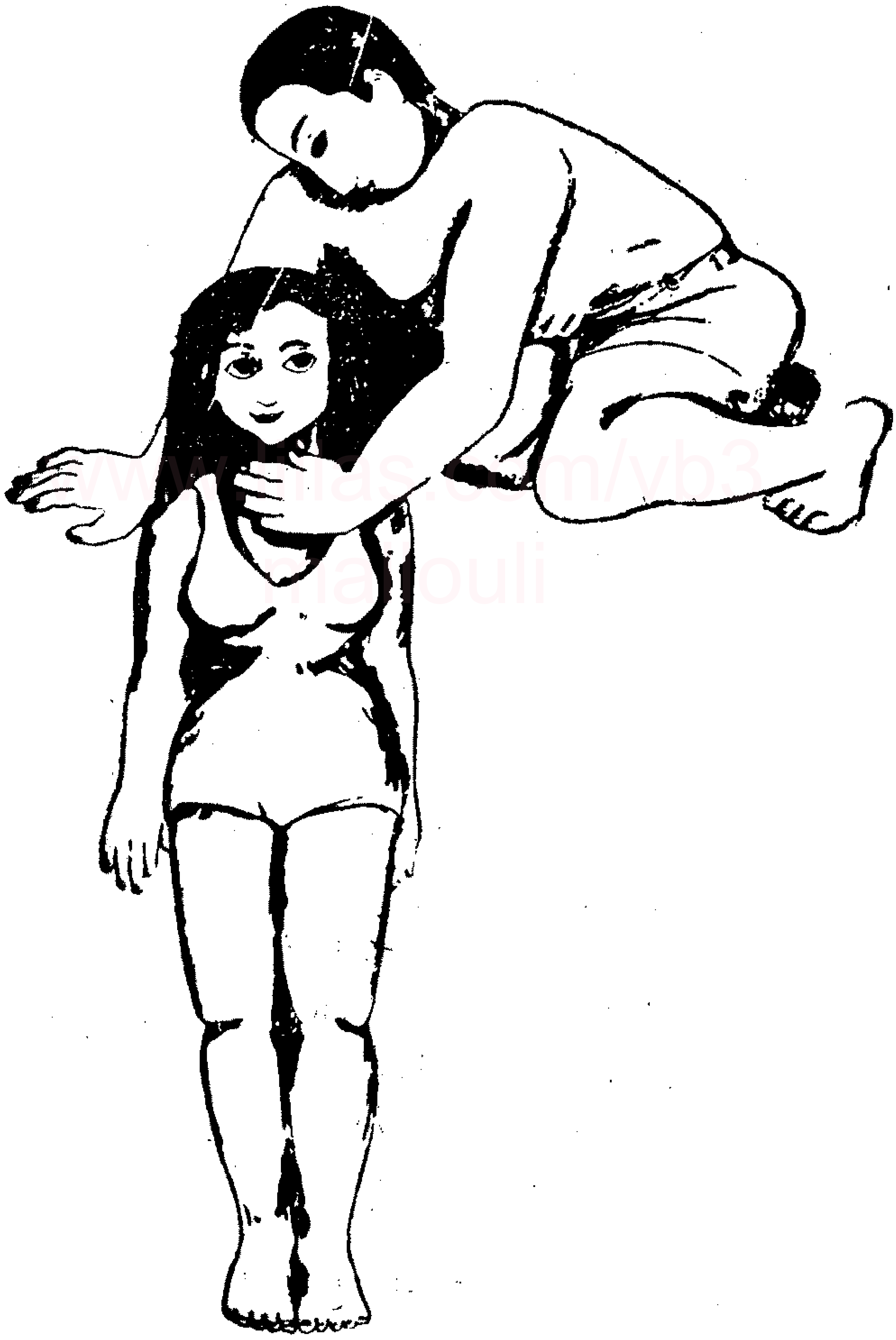
■

لنعدْ قليلاً إلى الوراء..
لن نُغضِب أحداً إذا عدنا قليلاً إلى الوراء...

ففي عام ١٧٩٨ كان يملك إحدى القرى في مصر، باشا تركي اسمه عثمان آغا كتخدا.. ذات ليلة كان جالساً يغالب السأم في بستان قصره، فرأى فلاحة صغيرة كانت تجلب الماء للقصر فاغتصبها.

وبعد ذلك بسنة أو سنتين، كان جنود الحملة الفرنسية قد انتشروا في البر المصري لقمع ثورة الأهالي.. فدخل جندي فرنسي بيتاً في قرية أخرى، ورأى فلاحة صغيرة ثانية فاغتصبها.

هذا الاغتصاب المزدوج الذي وقع في أُخريات القرن الثامن عشر، قد أثّر إلى حد كبير على تكويني الشخصي كواحد من رجال القرن العشرين...



فقد حملت الفلاحة الصغيرة لأولى. وزوّجها كتخدا لخادم يصنع الحلوى في قصره. . .

وحملت الفلاحة الثانية من الجنـدي الفرنسي فتـزوّجت فلاحـاً صغيراً يعزق الأرض، لتخفي عارها. . .

وبعد سلسلة طويلة. . سلسلة قَدَرية محكمة من الزواج والحمل وانجاب الأطفال والأحفاد، من عام ١٧٩٨ إلى عام ١٩٢٩، كانت دماء الباشا التركي وبعض طبائعه الثابتة قد أصبحت تجري في شرايين تاجر حلوى متعجرف يعاني من الكبرياء. .

ووصلت دماء الجندي الفرنسي إلى عروق ريفية صغيرة صاحبة الروح، لكنها منكسرة تميل إلى الحزن. . فحياتها مغلقة، ووالدها يملك ثلاث نساء وخمسة عشر والداً وبنتاً غيرها. .

وذات ليلة قديمة، من ذلك العام ١٩٢٩، ليلة مظلمة لا يضيئها سوى نجم شاحب وبعض الفوانيس الريفية التي ترتجف في الهواء. . ذهب تاجر الحلوى المتعجرف آخر سلالة عثمان آغا. . إلى تلك الريفية المنكسرة، آخر سلالة الاغتصاب الفرنسي. . وتزوّجها.

وهكذا. . بطريقة شرعية معترف بها مصحوبـة ببعض الضجة والعنف، تمكّن أبي من وضع عناصري الأولى. .

وبعدها بتسعة أشهر على التقريب ولدت أنا. .

طفلاً أزرق العينين، ذا مزاج مختلط متقلّب.

ولم يكن سهـلاً أيـامهـا أن أدرك أن هـذا المـزاج المتقلّب سيؤدّي بي في النهاية، إلى أن أفقد حبيبتي بهذه الطريقة العصـرية المهذبة!!

■

في الثالثة من عمري كانت أمي تخاف عليّ من الهواء، فكانت

تغسلني وتجففني خمسين مرة في اليوم، إذا توهمت أنني لمست بعض الغبار.. أو أن واحدة من الجارات قد وضعتني في صدرها..

وكانت تجعلني أعبر مفتوح الساقين جيئة وذهاباً على طبق من النار يتصاعد منه البخور، سبع مرات.. إذا زارنا زائر، ولمعت عيناه وهو يتأمل شخصي الصغير..

ففاض بي الغيظ يوماً وصوّبت حمامتي إلى النار فأطفأتها.

وقد أصبحت تلك الحادثة دعابة تاريخية تتندر بها الأسرة عندما يجيء ذكر الأطفال..

إلّا أن هذا الحرص المبالغ فيه على شخصي المتواضع قد جعلني ضعيفاً سلبياً لا أجيد اصدار القرارات.

وفي العاشرة من عمري كان أبي يستطيع أن يقول بفخر بين اخوانه ــ وكل منهم يدخن نارجيلته ــ إنه أجاد تربيتي وتأديبي، لدرجة أنني أسير في الشارع دون أن أرفع عينيّ عن الأرض من الحياء.. مثل البنات!

وفي تلك الأيام، انفردت بطفلة إحدى جاراتنا وقررنا أن نتزوج.. فأخذنا نرسم بالطباشير على سطح البيت، مطبخاً وغرفة للنوم وغرفة للاستقبال..

ثمّ خلعنا ملابسنا ونمنا داخل الخطوط الطباشيرية التي تحدد غرفة النوم..

لكن أبي ضبطنا وأنا أعالج بالحاح طفولي مدخل هذا العالم المسحور.

وقد ترك أبي في رأسي يومها جرحاً ما تزال آثاره باقية للآن... **وأفهمني** أن الرجل يقبِّل المرأة فتحمل.. ويفتحون بطنها لاخراج **الطفل**..

وفي اليوم التالي سمعت صوته في السلم وهو يزعق لجارتنا ويأمرها بأن تبعد ابنتها عني.. لأنها سوف تفسدني!

■

لكنني في الخامسة عشرة عرفت اللعبة..

كنت مراهقاً خجولاً شديد الحساسية فأحببت غلامة في مثل عمري رأيتها على شاطىء صغير تلفحه شمس أغسطس اللاهبة.

كانت ممددة على الرمل في مايوه أحمر من الصوف. فوقفت بعيداً أسلّط عليها بنظراتي وَلهَاً مشنوقاً لا يستطيع التعبير.

وقد أصبحت صديقتي بعد ذلك بأيام. وكان الشاطىء الصغير يخلو لنا في فترة ما بعد الظهر.. ورغم ذلك لم تطفىء ظمأنا تلك الملامسات اليدوية المرتبكة المتشنجة، التي حاول كل منا أن يختلسها من الآخر..

وذات يوم طلبت مني أن أقبّلها.. فقلت لها بفزعٍ حقيقي: وماذا نفعل بالطفل؟!

وقد ضحكت الصغيرة الحمراء المايوه كثيراً من جهلي، ثمّ جذبتني من يدي إلى بناء لم يتم في آخر الشاطىء.. وأمرتني أن أنام بجوارها لتعلمني اللعبة.!

وخلال ساعتين في هذا البناء، غير المكتمل.. المليء من داخله بفضلات الناس والخشب والطوب.. تعلّمت اللعبة، فأعجبتني..

وقد أحببنا هذه الجدران الناقصة فقررنا أن نطلق عليها اسمًا.. وكانت غلامتي في تلك الأيام تقرأ رواية بوليسية، فاقترحت أن نسميها «الوكر»!

وأصبحنا نلتقي كل يوم في نفس الميعاد. والشمس توشك على السقوط في الماء..

ونسير صامتين متلاصقين من أول الشاطىء إلى آخره..
شبحين نحيلين في الخامسة عشرة..
ثم ننسل إلى الوكر بعد أن ينصرف عنه عمال البناء.
وبعد ذلك بشهرين، انتهى الصيف.. وسافرت حبيبتي.
وفي الصيف التالي لم تحضر إلى الشاطىء مع أسرتها..
علمت أنها قد تزوّجت..

تصوّرت نفسي شهيداً مخدوعاً مطعوناً في كبريائه. وعواطفه؟

ودفعني الحزن لزيارة الوكر.
البناء الذي لم يكتمل..
الجدران الناقصة..
عشنا..
مدرستي..
لكنني رأيت مكانها مسجداً يصلي فيه الناس!

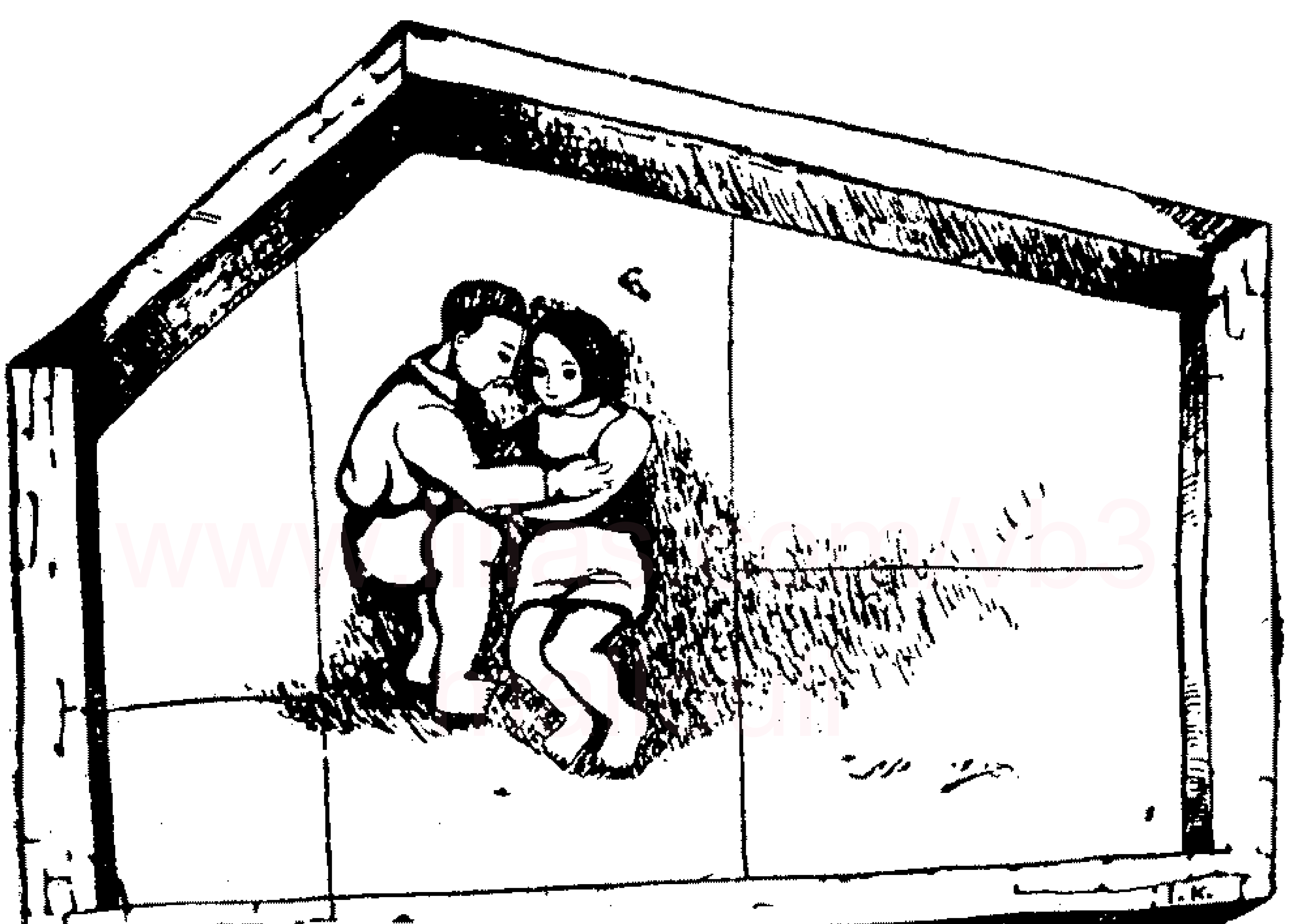
وتبينّ لي أن البنت يمكنها أن تلعب اللعبة مع رجل. ثمّ تتزوج رجلاً آخر..

وأن الوكر يمكنه أن يصبح مسجدا..
وأن لا شيء حقيقي وثابت ودائم..
وأن كل شيء يتغيرّ بطريقة منظمة..
دون أن يدري أحد.

وأصبحت في جعبتي المراهقة مغامرة أرويها للتباهي بين أصدقائي الصبيان.. فنسيت حزني..

لكن الحزن وقتها كان بذرة صغيرة.. سقطت في قلبي الرجولي وهو يحبو متلمِّساً طريقه إلى الجنس الآخر.

وقد ظلّت تلك البذرة الصغيرة تمدّ جذورها في ذلك القلب الذي يغذي شراينه بدماء ثلاث سلالات مختلطة..



تمدّ جذورها وتنمو على امتداد سبع عشرة سنة..
حتى أصبحت شجرة كبيرة وارفة..
شجرة ظليلة من الحزن..

أوراقها الكثيفة الرطبة تنسدل على روحي المتعبة وأنا أجلس تحتها الآن.. مجرد رجل أعزب.. يدخن ذكرياته ويشرب خمرة بيضاء، ويثرثر..

فبالرغم من أني أقترب في توجسٍ من الخامسة والثلاثين.

وأنني أستطيع ببعض الوسائل العصرية المعترف بها أن أجمع حولي عدداً لا بأس به من النساء.. وأستمتع بهنّ..

إلّا أن شجرة الحزن تهز أوراقها الرطبة المسدلة فوق روحي المتعبة بين الحين والحين.. كلما زارتنا عمتي وضربت صدرها بكفها العجوز البيضاء، وسألتني وهي تشهق: لماذا لم تتزوج؟

آهٍ يا عمتي العجوز الطيبة.. ما أبسط السؤال..
لماذا لا أتزوج؟

لأنني يا عمتي لا أستطيع..

إن بضع ثمار سوداء زاهية نبتت على شجرة الحزن التي تظلل روحي..

ثمار ثقيلة ناضجة تتدلىّ داخل قلبي..
هي التي تجعلني لا أستطيع!

■

يمكنكم بقليل من التسامح معي أن تتركوني أتوجع وأنا أداعب بعض ميولي السوداوية بين الحين والحين، فأنا أقلِّب أوراق الحزن المسدلة محاولاً أن أخرِج لكم بعض ثمارها الناضجة.. وأتذكر، متى حدث ذلك.. وكيف حدث.

ففي التاسعة عشرة من عمري.. وجدت نفسي أجيد اللعبة التي تعلّمتها على شاطئنا الصغير، بين ذراعي غلامة مراهقة في مايوه أحمر.. تزوجت ولم أعد أسمع عنها شيئاً كأنما ابتلعتها الحياة!.

وفي تلك السن قررت العائلة أن تهجر مدينتنا الصغيرة إلى العاصمة.. لأكمل تعليمي. فأخفيت في حقيبتي كراسة كازانوفية متواضعة حافلة بأسماء البنات اللواتي عبرن حياتي.

وخلال سنوات دراستي، أضعت في تلك العاصمة الكبيرة التي تزين سماءها بالاعلانات المضيئة الملونة، ثلاث فتيات. أضعتهن بنفس الطريقة السحرية الحاسمة التي أضعت بها غلامتي الأولى الحمراء المايوه. تزوجن في بساطة.. ودون وداع.. لأنني لم أكنْ صالحاً للزواج.

وكان الأمر قد أصبح عادياً.. لدرجة أنه لم يعد يكلفني حزناً..

وفي الخامسة والعشرين من عمري قال لي صديق طيب لوالدي إن الجنس اللطيف قد صُنِع من أجل الرجل.. ليتزوّجه.. فيشاركه العشق.. ويصنع له طعامه.. وينظِّم له بيته وحياته. لكنني أدركت أنه بقليل من الهدايا يمكن الحصول على كل هذا، دون الوقوع في الفخ.!

وكنت قد أصبحت موظفاً..

واحداً من هؤلاء الرجال الذين يتسلّمون مرتباتهم في مظروف مغلق، بينما عدد لا يُستهان به من أصدقائهم ومعارفهم يمكنهم إحصاء هذه المرتبات المحاطة بالسرية، ويعرفون بدقة أين تذهب مليمًا بعد مليم.

وكنت قد أصبحت أميل إلى طريقة الحياة الأوروبية.

تلك الطريقة التي تنصح الرجل أولاً ببناء شخصيته الاجتماعية وكيانه المادي قبل أن يفكر في الزواج..

ثمّ تنصحه ثانياً بأن يكون حريصاً على أن ينجب أقل عدد من الأطفال..

ليحصل في نهاية الأمر على شيخوخة موفقة..

في هذه الفترة الذهبية الحافلة بالحماس الرجولي، المتفتح لاقتحام العالم والحصول على مقعد مرتفع فيه..

قابلتُ حبيبتي..
غلامتي الأولى بالحجم الكبير.

فقد كان وجهها الطفولي الضاحك.. كأنه هو نفسه، وجه مراهقة الخامسة عشرة ذات المايوه الأحمر الشديد الضيق!

— ٢ —

فكرة الوقوع في الحب

من المؤكّد أنني لم أقع في غرام حبيبتي هذه، عندما رأيتها لأول مرة..

ففي تلك الأيام كنت قد بدأت أشعر ببعض القلق على سمعتي الاجتماعية حين وجدت نفسي محاطاً بنوع من النساء لكل الرجال...

وكانت فكرة شيطانية تخدش كبريائي في ذلك الحين.. هو أنني ما دمت قد قبلت التعامل مع هذا النوع، فأنا بالتالي... رجل لكل النساء..

وكانت هذه الفكرة العنكبوتية ممسكة بتلابيب ذهني المستيقظ توّاً من النوم، وأنا أحشر نفسي ذات صباح، في النصف المضاعف الأجر من الأتوبيس الذي ينقلني إلى عملي..

وقد علّقت ذراعي في ماسورة السقف داخل الأتوبيس حتى لا تسقطني اهتزازاته، وأنا أفكر بأنه قد أصبح من الضروري بالنسبة لي تصفية هذه العلاقات المتعددة.. والاحتفاظ بواحدة فقط.. واحدة فقط.. على طريقة الرجال الفاضلين الواضحي التهذيب!.

وقد اهتز الأوتوبيس فجأة ففقدت الحسناء التي بجواري توازنها.. وتعلّقت بذراعي المُعلّق بشكل غير إرادي..

وخلال هذا الحادث الصغير الخاطف قابلتها..

وقد استعادت توازنها ثمّ رفعت يدها الصغيرة العقيقية عن ذراعي الخشن وهي تبتسم في خجل.. فرأيت وجهها الطفولي الضاحك.

ولم أكنْ ساعتها أعلم أنها ستكون تفاحة حزني..
أولى الثمار السوداء الزاهية الثقيلة، المدلاة في قلبي..

وما كان باستطاعة أي عرّاف ذائع الشهرة، يجيد قراءة الغيب في الرمل والفنجان والورق، أن يجعلني أصدق.. أنه بعد عامين من هذا الحادث الصغير الخاطف الذي لا تكاد تزيد مساحة الأرض التي وقع فيها عن نصف متر.. سوف ينحني أمامي رجل طويل لا أعرفه.. ويطلب مني بطريقة عصرية مهذبة، أن أبتعد عن هذه الحسناء.. لأنه سوف يتزوجها!

■

جميع الحوادث تبدو في نظري الآن متكافئة في جودتها.. بالنسبة لي، كراوي قصة مسلية..!

وطريقة وجودها تبرهن على أن هناك مَنْ يقوم بخلق كل شيء.

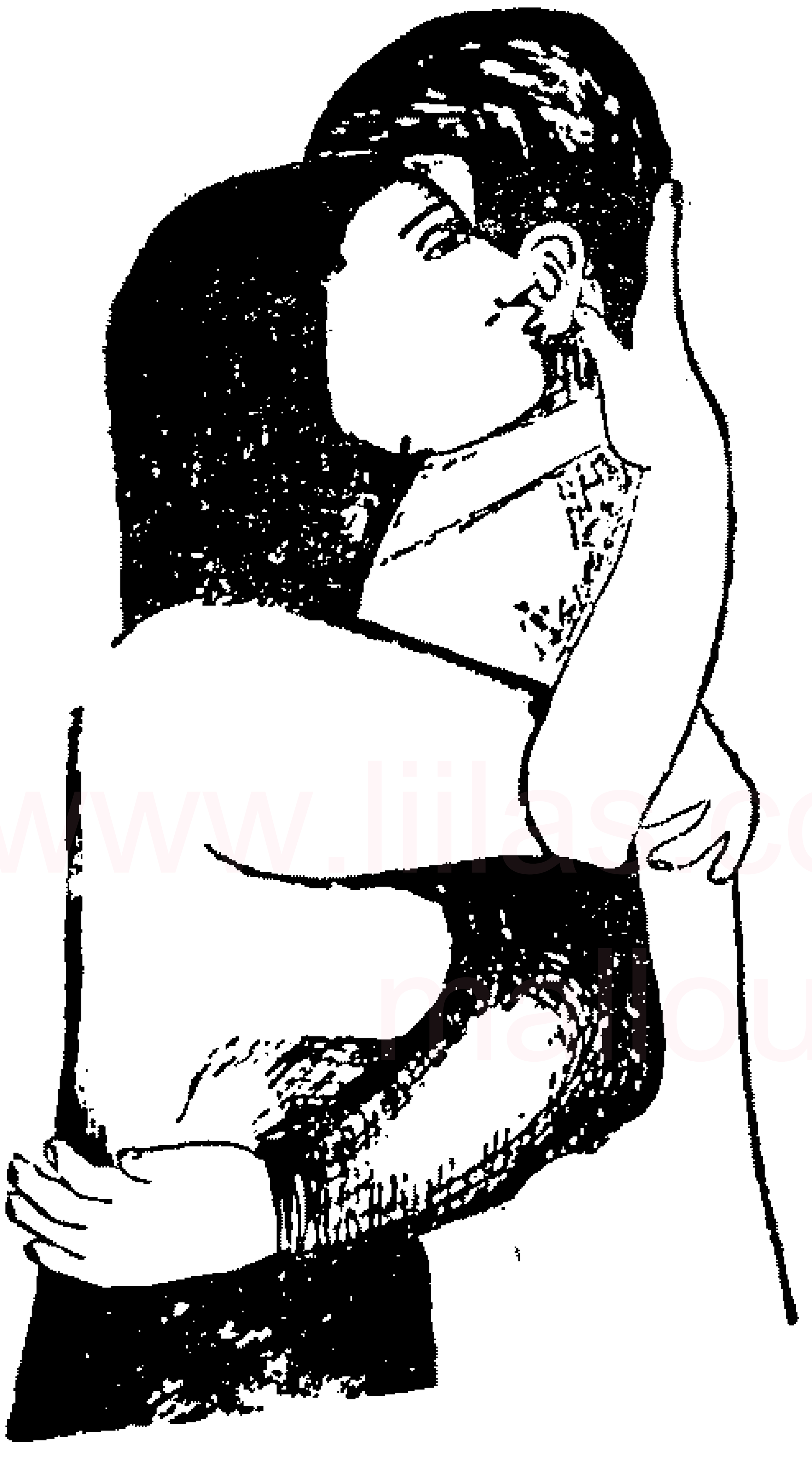
وفكرة الوقوع في الحب بسبب التوافق بين العقول والأفكار.. أصبحت في هذا العصر فكرة عابثة.. وما أصدق هذا في حالتي..

فعندما أحببتُ حبيبتي ذلك الصباح، في النصف المضاعف الأجر من الأتوبيس المهتز.. لم تكنْ أفكارنا قد توافقت أو التقت بعد على شيء، سوى استعمال نفس الأتوبيس..

ولعلّ هذا أيضاً كان محض مصادفة!

ويمكنني الآن أن أتذكر ما حدث بدقة.. فالصور القديمة ما تزال زاهية تثير القلق والحزن، كأنها التقطت في ذاكرتي أمس.

الحسناء وهي تستعيد توازنها..
اليد العقيقية تنزلق عن ذراعي في همس منغوم..



الوجه الطفولي يتموّج بابتسامة خجل.. ابتسامة تتلألأ بالصفاء اللا أناني..

العينان الطفليتان في وجه الحسناء التي لا أعرفها تنتزعانني من وسط الزحام والضجة فجأة، وتلقيان بي بعيداً إلى الوراء.. على شاطىء صغير تغرب عليه الشمس.. داخل بناء لم يكتمل.. بين ذراعي غلامة في مايوه أحمر شديد الضيق.

وقد استيقظت في روحي لحظتها تهويمات ساخنة رمادية، كأن شيئاً في داخلي قد انفجر بصمت..

فرحت أدور حول هذا الحدث أتفحصه وأنا أشعر بالقلق..
خلال دقيقتين أو ثلاث..

ثمّ اهتزّ الأتوبيس مرة ثانية، فأفقت على الحسناء ويدها العقيقية حائرة، تتلمّس شيئاً يمسك توازنها.

فقدّمتُ ذراعي وأنا أبتسم في تواضع.

■

لا أستطيع الآن أن أمنع خاطراً ساخراً يراودني، فلو أن الرجال في العاصمة كانوا أكثر اهتماماً بفكرة الشهامة، لاستطاعوا تقدير عادة الوقوف للنساء في الأتوبيس..

وكان أحدهم سوف يتخلّىّ لها عن مقعده في ذلك الصباح البعيد.

وكان من الممكن لو حدث هذا.. ألّا تكون عندي حكاية أرويها لكم الآن.

■

كان الزحام قد ضغطها إلى جانبي فأصبحت متماسكة.
وكانت تحاول أن تطبع ملامحي في ذاكرتها بنظرة جانبية مسروقة، عندما ضبطتها فابتسمت في خجل.

تأملت فمها وعينيها بفضولٍ مترع بالألم كان دائمًا عنصراً قوياً من عناصر شهوتي الصباحية، فاختلج أنفها.

كانت خجلى باخلاص قلبي كبير، وبسهولة لا جهد فيها.. حتى أنني قررت في ذلكَ المكان.. وفي تلك اللحظة.. أن أحبها.

وكان في موقفنا شيء من الارتباك والحياء.. وقد أخذ تنفسنا يسرع ويتعالى، كلما التقت أعيننا..

كآدم الأول وحواء الأولى عندما أكلا من الشجرة.

ما أروعها تلك التوسّلات الصامتة التي تطلّ إلى ما وراء الوعي، منطلقة من الشفاه المرتجفة المنسوجة من لحم ودم.. ومن العيون.. ومن الزحام الذي يضغطنا..

آه ــ إنني الآن أتوجع ــ

كنا نقف هناك بلا اكتراث.. جزءاً من ذلك الأتوبيس المهتز، من تلك العلبة الحديثة المتحشرجة..

لا نبالي بما حولنا..

وقد أسلم كل منا روحه وسعادته ومصيره.. للدفء المنبعث من جسد الآخر.

وقد نسيت محطتها..
ونسيت أنا موعد عملي..

وتتابعت الصور بعد ذلك ملهوفة غير مُعتنىً بالتقاطها وتأملها:

المناظر الطبيعية المنغومة في ذلك الصباح البعيد..
والزحام على الأرصفة..
والباعة..
وضجة السيارات..
وذهول الناس في اسراعهم إلى أعمالهم..

وشلالات من ضوء الشمس تنسكب من فرجات التفاوت الطبقي بين العمارات. .

ويدها في يدي.

ونهر يتلألأ بالصفاء الغامض. .
وشجرة في كازينو مدلاة على مائدة العاشقين الجديدين. .
وجرسون ينحني راسمًا بجسده علامة الاستفهام، وفي ركن فمه ابتسامة ساخرة من هذا النشاط العاطفي المبكر. .

والآنسة تطلب عصير البرتقال. .
وأنا قهوة. . مضبوطة لو أُمكنْ. .

آه. . ما أسخف الواقع لو لَـمْ نلوِّنه بأوهامنا المسحورة. فلو أن لكل انسان قلباً شاعريا يتأمل به العالم، لما تنازلت أنا بعد ذلك عن أجر هذا اليوم من مرتبي، لأن رئيسي المباشر المعقوف الوجه، رفض أن يقبل اعتذاري عن الحضور بالتليفون.

ولفكرت حبيبتي مرتين قبل أن تقول لي ونحن نبدأ حديثنا «ما كان يجب أن أجيء معك. . هكذا من أول مرة»!
ما أشهى هذه الحواء الراغبة المتمنِّعة. .

لكنني الآن، وأنا أقترب في توجسٍ من الخامسة والثلاثين قد بدأت أدرك. .

ان هذا القلب الشاعري المختلط الدماء، الذي أتأمل به العالم. .

هو سر حزني.

■

طبقاً لقواعد الحب العصرية، ولأن كلاً منا لم يكن متأكداً من الآخر بعد. . كان من الضروري أن نلتقي كل يوم. . وكان مقدَّراً لهذا اللقاء أن يحرمني من ساعات النوم في الظهيرة التي تعوّدت عليها. .

تضحية لا مفرّ منها أمام تقاليد عائلية لا تسمح لحبيبتي بالتأخر خارج البيت بعد الثامنة مساء.

والآن وأنا أدخن ذكرياتي وأثرثر.. أكاد أشعر بالطعم اللاذع لهذه الساعات الظهرية الحافلة بالتعب.. طعم النبيذ المرِّ..

في هذه الساعات التي كانت تختلسها هي من الجامعة، بين محاضرتين.. وأختلسها أنا من راحتي العادية.. كَمْ من الشوارع الجانبية الصغيرة اكتشفناها بفرح طفولي وأيدينا مشبكة.

وأيّ سعادة غامرة كانت تحتوينا ونحن نتأمل المباني القديمة في الأحياء التي يرجع تاريخها لألف سنة.. والزهور المغسولة بالشمس في الكازينوهات.

«المدينة تصبح عالماً بأسره.. عندما يحب الانسان أحد سكانها».

شعرٌ لا أذكر مَنْ الذي قاله..

لكننا ــ للحقيقة ــ كنا نجهد أنفسنا لنتوهم أن الذي بيننا حب..

فقد ظلّت بيننا دائمًا، تلك التوسّلات الصامتة الرائعة التي تطلّ إلى وراء الوعي، منطلقة من الشفاه المنسوجة من اللحم والدم.. ومن العيون.. فتجعلنا نرتجف لعلمنا بما كان الواحد منا يريده من الآخر..

وكانت هي.. كامرأة بين عيني وأمامي، ومعي.. ولكن بعيدة عن متناول يدي.. قد أصبحت مشتهاة، وضرورية عشر مرات أكثر من رغبتي العادية!

■

وكنت قد سمعت من قريب لي عائد من أوروبا.. أن الشباب في البلاد المتقدمة يتخلصون من هذه المشكلة في إحدى الحدائق العامة، حيث يحترم رجال البوليس الحب ويبسطون عليه الحماية..

وفي البلاد الأقل تقدماً يُقابَل الشبان بعطف ويُقدَّم لهم الطعام والحلوى في الغرف المفروشة التي تؤجّر بالساعة..

إنهم هناك يعتبرون تجربة الحب الكاملة، إحدى التجارب الرئيسية الهامة. فمن خلالها يستطيع الشباب أن يكتشف نفسه.. ويثق بها.

وقد أخرج لي قريبي شفته السفلى باشمئزاز وهو يغمغم «أنتم هنا مساكين.. ممتلؤون بالعُقد» وكان يضغط على كلمة أنتم، كأنه قد انفصل عنا بمجرد ذهابه إلى أوروبا!

وكان الأمر قد أصبح واضحاً لكلينا.. أنا وهي.. رغم أننا لم نجرؤ على أن نتكلم فيه..

من الضروري أن نجد سقفاً وأربعة جدران.. سقفاً متواضعاً نذيب تحته توترنا اللا نهائي..

وكان عليّ أنا.. بصفتي الجانب الايجابي في المسألة، أن أجد هذا السقف.

■

وقال لي صديق متزوج، يخون زوجته بين الحين والحين.. إن هناك بعض الشكليات يجب القيام بها أولاً.. فمن الضروري أن يتكلم في التليفون مع واحد اسمه الأستاذ زينهم، ويأخذ منه موعداً في قهوة..

ثمّ نذهب إلى القهوة ويقدّمني له..

وبعد هذا التعارف أدعوهم أنا إلى السينما لنصبح أصدقاء.

وفي السينما يميل صديقي على أذن الأستاذ زينهم ويهمس له بأنني أرغب في زيارة بيته مع إحدى صديقاتي، فيرحِّب الأستاذ زينهم، ويشدّ على يدي.. ويحدد لي موعداً.

في أول الأمر ظننت الأستاذ زينهم أعزب في حالة ممتازة.. بدليل أنه يمتلك شقة خاصة يمكنه أن يعيرها لأصدقائه.

لكن صديقي الذي يخون زوجته قدّم لي ابتسامة عليمة بكل الأمور، وأفهمني أن السيد زينهم متزوج.. وله من زوجته طفلان صغيران.. وزوجته لها بنت كبيرة من زوج سابق..

والبيت الذي سأستعير إحدى غرفه لبضع ساعات، مع صديقتي.. هو نفس البيت الذي تعيش فيه هذه المجموعة المتكاملة من المخلوقات.!

ساعتها صرخ السؤال في عيني، لكن صديقي الذي يخدع زوجته هزّ كتفي وهو يذكرني بأن أترك في هذه الغرفة قبل أن أغادرها.. وبالتحديد، على دولاب المناشف الصغير المجاور للسرير.. مبلغاً من المال لا يجب أن يقلّ عن الجنيه»!

■

ليتني كنت أعلم في تلك اللحظة البعيدة، وأنا أسير بجوار صديقي لنطلب هذا السيد زينهم في التليفون، أنني أقترب بحبيبتي مغمض العينين، من الرجل الطويل الذي انحنى أمامي بعد ذلك.. وطلب مني بتواضعٍ يثير الغيظ أن أبتعد عنها ليتزوجها!

لكن الرغبة.. الامتلاك.. الحب.. الحلم.. المغامرة.. تلك الأعاجيب التي يحدثها انقسام الكائنات البشرية إلى صنفين منفصلين.. كانت قد جعلتني أخرج من السينما وذراعي في ذراع السيد زينهم، السمين القصير.. وفي جيبي بطاقة صغيرة تحمل موعداً، وعنوان البيت.. وكنت سعيداً ـ للأسف ـ أتحسس البطاقة في جيبي وكأني أهدهد بها أحلامي الرجولية، وكل الأمور الشهية المتوقعة..

ـ ٣ ـ

الرجل السابق
المجهول

في ذلك اليوم ، كنا قد التهمنا بعض السندويشات في الكازينو الذي اعتدنا أن نلتقي فيه . . .

وزجاجة من البيرة شربت حبيبتي كوبة كاملة منها وهي تصطنع الامتعاض . .

وكانت قد بدأت تتأفف من الهواء الساخن الذي يلفح مائدتنا، وتحكي لي كيف أن اللصوص اقتحموا بيت شقيقتها المتزوجة في الليلة السابقة . . وسرقوا منه نقوداً ومجوهرات .

وكانت يدي في جيبي تتحسس الورقة الصمّاء التي تحوي عنوان السيد زينهم، وأنا أستمع لحبيبتي بنصف عقل . .

بينما كان النصف الآخر يحاول جاهداً اختراع سبب معقول يجعلها تقبل الذهاب معي لذلك البيت . . .

واسمحوا لي هنا أن أنبهكم إلى التقاليد الاجتماعية السائدة، التي لا تسمح للرجل منا بأن يتصور حبيبته قد عرفت رجلاً آخر قبله . . فعلى الرغم من أنها ــ تلك التقاليد ــ نوع من اخفاء الرؤوس في الرمال، إلاّ أنني كنت أميل نوعاً ما لاحترامها . .

وعلى هذا الأساس كنت أعامل حبيبتي . . فأخفيت خططي في تلافيف من التمهيدات غير الواضحة وقلت باهمال متعمد وأنا أترك ثمن

الطعام والبيرة على المائدة. . «هيا بنا نقوم بزيارة أحد الأصدقاء». .

فأخرجت حبيبتي مرآتها الصغيرة واطمأنت على محاسنها، ثمّ علّقت ذراعها بذراعي، وسارت إلى جواري دون أن تسألني عن هذا الصديق الذي سنقوم بزيارته. . .

ولعلّ حبيبتي كانت تعلم، ونحن في التاكسي، أن شيئاً غير عادي سوف يحدث ذلك اليوم. .

ولعلّها قد خمّنت بغريزتها الأنثوية المتفوقة، كنه هذا الشيء.

وأعجبها ألّا ترفضه!.

فقد سربلت نفسها بقناع من الاطمئنان والبراءة والاستسلام الكامل لحسن تقديري للأمور. . وأخذت تثرثر بحكاية أختها والسرقة. . والاتصالات الرفيعة الشأن التي يقوم بها زوج أختها ــ وهو محام معروف ــ لاستعادة المسروقات. . . لا مبالية بكل الصور المتشابكة التي تتصارع في رأسي. . للسيد زينهم، وهذا البيت الذي أزوره لأول مرة، والتفاصيل الكثيرة المرعبة التي يجب أن نقتحمها لنعبر منها أنا وهي، إلى سرير ممهد وغرفة مغلقة.

وقد راودني حينذاك خاطر مضنٍ. . هو أن حبيبتي تتعمد هذا الانشغال البريء، لتتركني أتحمّل وحديَ مسؤولية اغوائها!.

■

كان المصعد معطلاً، فسبقت حبيبتي على السلم.

ربمّا كنت أهرب بذلك من حَرَج قد تثيره بيننا تلك الأسئلة التي كان مفروضاً في مثل موقفها أن تسألها. . لكنها لم تسألها.

وفي الطابق الرابع كما يقول العنوان وضعت أصبعي على الجرس فأطلّ علينا من زجاج الباب وجه فتاة ريفية الملامح. . «السيد زينهم من فضلك». . «تفضلوا».



المدخل أنيق . . مقاعده الوثيرة تجمع بين الحشمة والمرح، والسفرة عليها أنقاض طعام . . وطفلان لم ينتهيا من الأكل بعد . . وسيدة سمراء تشبه الأمهات إلى حد كبير كانت تحدو الطفلين أثناء طعامهما . . وخادمة صغيرة منشغلة بنقل الأطباق الفارغة إلى المطبخ .

والسيد زينهم في ثوب منزلي نظيف وأنيق، يخرج من باب جانبي وهو يدعك وجهه بعطر اللافندر المتوسط السعر . . «أهلا وسهلا، حماتك مش بتحبك الظاهر» . . وكان يقصد أننا لم نلحق بالطعام .

وقدّمته لحبيبتي وقدّمتها له .

وقد استطعت أن ألتقط في عيني حبيبتي نوعاً من خيبة الأمل وهي تتأمل الحياة العائلية التي اقتحمناها فجأة .

ولم يكنْ باستطاعتي ساعتها، سوى أن ألهج في سري بشكر السيد زينهم، على كياسته . ومرحه وحسن تقبله للأمور . . . ففي بساطة شديدة قادنا إلى الصالون بعد أن أطلق في الجو مجموعة مرحة من التعليقات .

وجاءت السيدة السمراء التي تشبه الأمهات .

فقدّمها لنا . .

زوجته . .

وجاءت البنت الريفية الملامح بالشاي . . ابنة زوجته . .

وجلسنا جميعاً في ذلك الصالون النظيف المذهب . . الذي تنسحب من نافذته شمس آخر النهار . . صورة متكاملة لزيارة عائلية يسودها السرور والمرح . .

والسيد زينهم يعمل بالشؤون القانونية في إحدى الهيئات ـ لم أكنْ أعرف ذلك ـ وحبيبتي تدرس القانون . . وجرائد الصباح فيها قضية غريبة تثير انتباه الناس، فأحضر زينهم الجرائد واستغرق مع حبيبتي في النقاش . .

ووجدت نفسي وحيداً معزولاً وسط هذا العالم المبتهج السعيد . .

الذي تنحني فيه بين الحين والحين سيدة سمراء تشبه الأمهات وترحِّب بالضيوف..

شعرت فجأة أن كل الخيوط تفلت من يدي.. وأن صديقي الذي يخون زوجته قد اشترك مع هذا السيد زينهم في خداعي.. وأنه غير معقول على الاطلاق أن يسمح هذا الجو الذي يسود البيت.. بذلك الشيء الذي جئت هنا لأفعله!

لكن السيدة السمراء نهضت فجأة.. وغابت قليلاً ثمّ عادت تطلّ علينا وهي تومىء لي برأسها، فخرجت من الصالون وراءها...

وكانت السفرة قد أصبحت نظيفة.. والأطفال قد اختفوا..

ومررنا بحجرتين، إلى حجرة ثالثة في نهاية الشقة.. حجرة متوحِّدة، كأنما باقي الحجرات غاضبة معها..

وفتحت السيدة الشبيهة بالأمهات الباب، فأطلّ عليّ من الغرفة سرير حديدي ومرآة..

وغمغمت وهي تتركني وتنصرف: «كل شيء جاهز.. الحمام على يسارك.. سأذهب لاحضار صديقتك»..

■

الآن وبعد مرور هذا الزمن أستطيع أن أتبينّ إلى أي حدٍ مثير للتقزز، كان هذا السرير الحديدي البارد الذي عرفت عليه جسد حبيبتي لأول مرة.. يشبه ذلك السرير الآخر في الغرفة الخاصة من المستشفى الفاخر المحاط بالرعاية.. والذي رقدت عليه حبيبتي بعد ذلك بسنة وبضعة شهور.. لتستأصل ربع معدتها، بسبب حماقتي.

ولعلّه كان مفروضاً أن يمنعني واجب الحياء عن التعرّض لمثل هذه الأشياء الشديدة الخصوصية، وعبورها.

لكن المأساة بدأت من هنا..
من ذلك الموضوع الذي يخجل الناس من الكلام فيه.

من تلك الغرفة في ذلك البيت. . وكل الغرف الأخرى التي لم نكن نملك سوى مفاتيحها فقط. . كل الغرف الصغيرة المستعارة، المتفرقة في أنحاء هذه المدينة الكبيرة التي تزين سماءها بالاعلانات المضيئة الملونة. . هذه الغرف المغمورة التي شهدت غليان الدماء الحقيقي وغيبوبة الانتشاء الساحق. . لشاب وفتاة في المرحلة الثالثة من العمر، يشعـران بالعزلة النفسية في هذا العالم الكبير، المدهون ـ فقط ـ بالحضارة!

■

كنت قد نقلت المفتاح من خارج الباب إلى داخله. وأخذت أتفحص الغرفة المتوحِّدة حين جاءت حبيبتي. .

دخلت متهللة وبين أسنانها اللؤلؤية ذيل ضحكة تركت بدايتها في غرفة الصالون. . وأعلنتني وهي تومىء بذراعها أن الساعة تقترب من السابعة. . وأنها تأخرت. . وأنه قد آن لنا أن نرحل. . فقبلت أذنها وأنا أدير المفتاح في الباب. .

سقط ذيل الضحكة من فم حبيبتي ووقفت تحدِّق في الباب مبهوتة. . كأنها اكتشفت فجأة ما أقصده. . كأنها قد فزعت من هذا الذي اكتشفته. .

فدنوت منها أضمها محاولاً أن أُذيب فزعها في صدري المطمئن إلى قدراتي المحدودة على الايذاء. .

لكنها انفلتت من بين ذراعي، وانكفأت على الفراش. .
وفي سرعة تثير الإعجاب، بدأت تبكي!

وهكذا بطريقة مسرحية حاسمة، وجدت نفسي أخيراً في الغرفة التي كنت أهدهد بها أحلامي الرجولية. . ألعب دور الوحش أمام هذه الضحية الواضحة الطهر، التي تخفي وجهها في غطاء السرير وتبكي!.

هناك أمثلة كثيرة تكشف عن النتائج الخطيرة التي يحدثها عنف الرجل ووحشيته، حين يمارس عمل الحب مع فتاة لأول مرة. .

وكنت قد قرأت في بعض الكتب التي تهتم بعلم الحب التطبيقي، أن

التجربة التي تنضم خلالها الفتاة إلى عالم النساء، ليست امتداداً لعواطفها الجنسية طوال فترة نموها.. وإنما هي حادثة منفردة.. وأن الرجل الذي يقوم بهذه الحادثة يطبع المرأة بطابعه..

وكنتيجة لهذه الميول العلمية التي أواجه بها العالم، اكتسب موقفي والحال هذه، أهمية بالغة..

وكانت تطنّ في أذني طوال الوقت عبارة بلزاك الشهيرة «لا تبدأ حياتك الزوجية باغتصاب زوجتك»..

ورغم أنها لم تكنْ زوجتي إلّا أنني كنت أميل إلى اطاعة بلزاك..

وكانت حبيبتي ما تزال مخفية وجهها في غطاء السرير وهي تنهنه بين الحين والحين.. فأشعلت سيجارتي ودنوت منها.. وأدخلت يدي من رقبة البلوزة المطاطة وأخذت أدلِّك أضلاعها البارزة، فاستكانت لى ورفعت وجهها المبلل بالدموع وأنامته على ركبتي.. فانكمشَتْ بداخلي الرغبة وولد مكانها نوع من الحنان الرائق الشديد التخدير.. جعلني أخشى أن أتحرّك فيهتز وجهها، أو تنزعج فترفعه عن ركبتي..

وأخذت أفكر في حبيبتي تفكيراً مثالياً..

وكان موعد العودة الذي تفرضه عليها تقاليد العائلة، يقترب.. فقبلتها وأنا أساعدها على النهوض.. وطلبت منها أن تذهب إلى الحمام لتصلح زينتها.

وكنت أقصد أن أُوهم السيد زينهم ـ عندما يسمع صوت الماء في الحمام ـ أننا كنا نستمتع فعلاً بوقتنا..

وأصلحت ملابسي وتركت الجنيه على الدولاب الصغير المجاور للسرير..

وأخذت حبيبتي في ذراعي وغادرنا الغرفة..

وعند الباب الخارجي شكرت السيد زينهم، لكنه نحّى شكري جانباً

بيده، وهو يشير بأسلوب ملوكي اشارة معناها أن البيت بيتنا!!

وعلى السلم كان يلتهمني تشويش في المشاعر واحساس بالخيبة لم أشعره من قبل.

وكانت حبيبتي تسير بجواري صامتة.. لكنها بين الحين والحين ترفع عينيها إلى وجهي وتتأمله بحنانٍ مفعم بالاعتراف بالجميل..

وعندما خرجنا إلى الشارع، وابتلعتني ضجته.. شعرت بالخلاص كأنني كنت في عالم غامض مسحور مليء بالتعقيدات.. وكان بداخلي شيء غير قليل من الشعور بالذنب، لأنني جرؤت وأخذت حبيبتي لذلك المكان..

وكنت في نفس الوقت سعيداً لأنني أحسست أن بذرة التفكير المثالي، قد بدأت تولد في قلبي..

ولكن..

بعض الصبر..

أيها السادة المبجلون الذين تحمرّ آذانهم عندما تدخلها كلماتي الواضحة، بعض الصبر، واستمعوا لي.

فبعد ذلك بأربعة أيام، عدنا لذلك البيت.

ودخلنا تلك الغرفة وأغلقنا بابها علينا..

وكانت حبيبتي في هذه المرة أكثر شجاعة..

وفي اللحظة الحاسمة وجدت عينيها تتوسّلان إليّ، لا أدري بماذا.. رأيت فيهما ابتهالاً غامضاً، رغم مضي هذا الزمن لا أستطيع تفسيره الآن؟

هل كانت ترجوني ألّا أفعل ذلك؟

أم كانت ترجوني أن أفعله؟!.

وقد ظللت متسربلاً بفكرتي المثالية عن حبيبتي حتى اجتذبتنا، أنا وهي، تيارات صاخبة ليس من المستطاع مقاومتها.. جعلتني أسبح بين

أمواج وردية متألقة. اكتشفت خلالها أنني لم أكنْ فارس حبيبتي الأول!

وعندما خرجنا إلى الشارع في ذلك اليوم، وابتلعتنا ضجته. . كانت حبيبتي تحدِّق في الأرض.

وكنت أنا أشعر بأن فكرتي المثالية عنها، قد أصبحت تنزف دماً.

■

ها نحن قد بدأنا نجمع البذور الأولى التي أنبتت المأساة. . فمن هذه النقطة. . من هذه الفكرة المثالية التي تنزف دماً. . انطلقنا.

وبدأت أفقد حبيبتي رويداً رويداً. . بالتدريج.

ولعلكم قد لاحظتم أنني أتذكر المواقف، لا على الترتيب الذي وقعت به. . ولكن على الترتيب الذي تبرز به أهميتها عندي، وأنا أتأملها الآن من فوق الزمن الذي راح.

ففي اليوم التالي لم تظهر حبيبتي.

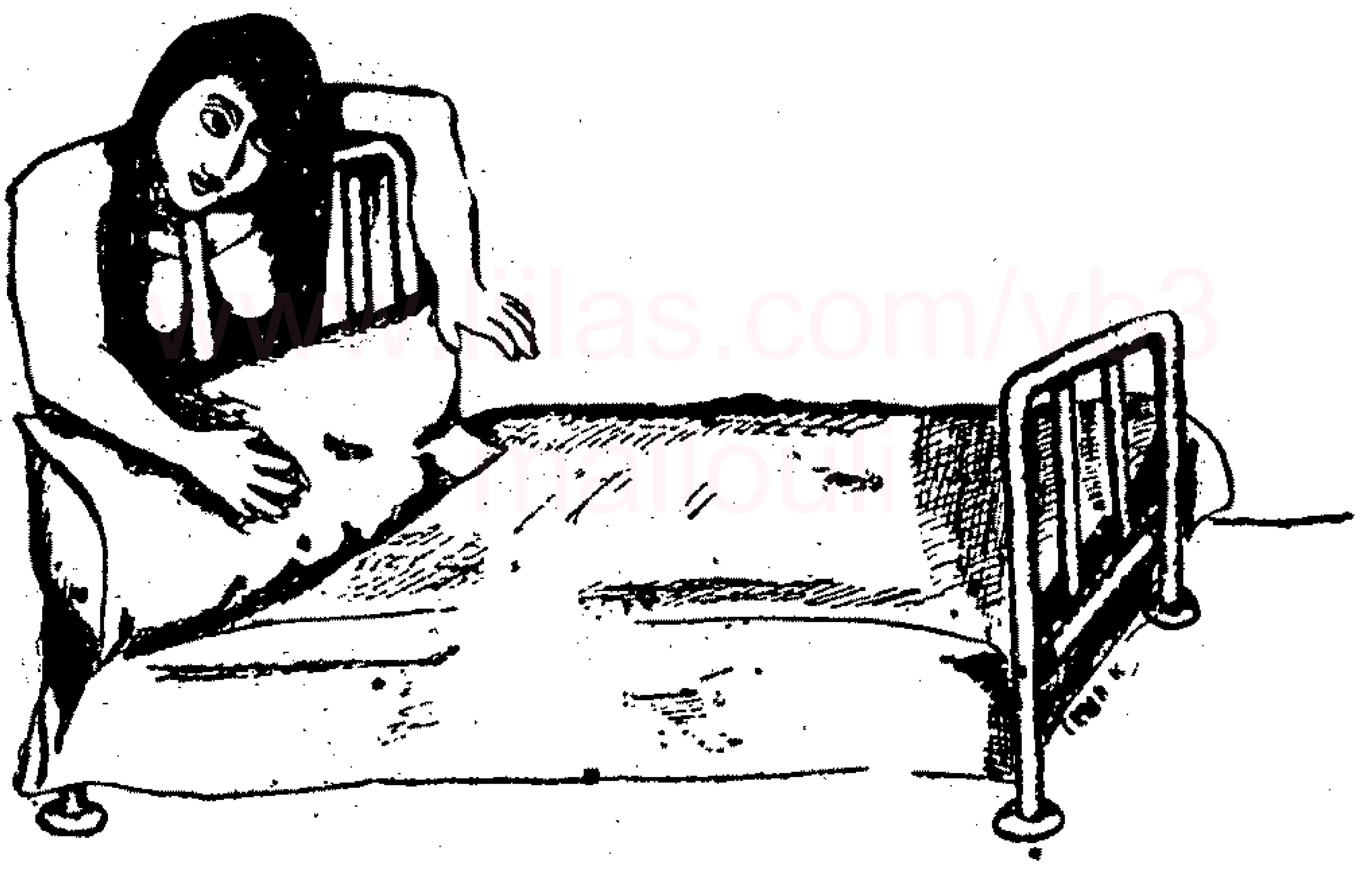
لم أقابلها في الأتوبيس المشترك بيننا في الصباح.

ولم تحضر إلى الكازينو الذي اعتدنا أن نلتقي فيه عند الظهر.

ولم تكلِّمني في التليفون.

وخلال يومين آخرين. . ظللت أفكر وأنا أنتظر ظهور حبيبتي في تلك المقدرة الفذّة على اخفاء التجارب السابقة. . التي تملكها النساء. . فمن خلال بضع نظرات فاحصة إلى رجل ما يمكننا التكهن ببعض التجارب الانسانية التي حصّلها. . لكننا لا نستطيع أبداً أن نتبين آثار مَنْ كانوا قبلنا من الرجال، بمجرد النظر في وجه الفتاة.

ولعلّ مرجع هذا إلى التقاليد الاجتماعية التي تتساهل كثيراً مع الرجل، فتسمح له بأن يتفاخر بتجاربه ويستعرضها بين الحين والحين. . بينما ــ بتعسفٍ يثير الحنق ــ تحُرَم المرأة من هذا الحق.



لكنني أيامها ـ للحقيقة ـ لم أكن أنظر للمسألة بهذه العين الفضفاضة التي تلتمس الأعذار . .

كان تفكيري قد انحصر فجأة، في هذا الوجه الآخر من صورة حبيبتي . .

في هذا الرجل السابق المجهول . . الذي اقتحمت تجربتي الشخصية، آثاره التي خلّفها وراءه.

وكان واضحاً بالنسبة لي وقتها . . أن هذا الاكتشاف الجديد، قد قلب ميزان تجربتي رأساً على عقب.

لكنني لم أحاول أن أصدر حكماً غيابياً على حبيبتي . . فلم تكنْ بيننا تلك الحقوق الرسمية التي تدعو الرجل إلى الشعور بالغيرة . .

كما أن عواطفي تجاهها لم تكنْ قد تبلورت بعد . .

وكنت أيامها أميل إلى الشعور بأن حبيبتي باختفائها هذا، تعترف بحقوقي الرجولية قبلها.

وأنها تختفي لتدبر عذراً لمواجهة هذه الحقوق.

■

وقد جعلني هذا أشعر ببعض الراحة وأنا ألوك التجربة في ذاكرتي بلذّة . . . في انتظار ظهور حبيبتي لتفسِّر لي كل شيء . .

■

اسمحوا لي أن أتفلسف.

فبالرغم من أنه لايوجد سبب طبيعي يفرض على الرجل والمرأة هذا العداء الدائم، إلاّ أن المجتمع الذي وضع الرجال تشريعاته . . يصرّ بغباء مثير للسخرية على اعتبار المرأة أقل قيمة من الرجل، ولا تستطيع المرأة إلغاء هذا النقص إلاّ بتحطيم هذا التفوق الممنوح للرجل، لذلك تحاول السيطرة

عليه بأن تناقضه وتسخر من تفوقه هذا بأن تضلله وتخدعه. . إنها بذلك لا تفعل سوى الدفاع عن نفسها.

آه. . هأنذا أعود إلى التوجع. . لأنني الآن أدرك، أي مقدرة رائعة على التعاسة نملكها نحن الرجال.

لأنني الآن أدرك لماذا كذبت حبيبتي، وهي تفسِّر لي!
ففي اليوم الرابع لم تظهر أيضاً.

وفي اليوم الخامس وصلني منها خطاب أزرق رقيق، مغموس في نوع شائع من العطر، تعترف لي في عشرة سطور منه، وبأسلوب فطري شديد، بأنها ــ بعد هذا الذي بيننا ــ لم تعد تستطيع الحياة بدوني.

وفي العشرة سطور التالية، طلبت مني ألّا أنتظر رؤ يتها، لأنها قررت أن تخرج من حياتي إلى الأبد. . بسبب هذا الذي حدث بيننا أيضاً.

وفي السطور المتوسطة من الخطاب أخذت حبيبتي تفسِّر لي هذا القرار بالخروج من حياتي، الذي اتخذته. . فقالت إنه نوع من الهروب من تلك الأفكار السيئة التي لا بدّ سوف تتبادر إلى ذهني عنها ــ كعادة الرجال عموماً في مثل هذه الأحوال ــ حين أتصور أنها قد عرفت آخرين قبلي. . ومضت تحدثني عن نوع من الرياضة البدنية تمارسه في ملاعب الجامعة، يفرض عليها أن تقفز مفتوحة الساقين قفزات عنيفة بضع مرات كل يوم أثناء التدريب، هو الذي أفقدها أعزّ ما تملك. . وجعلها تبدو في النهاية وهي معي، بهذه الصورة السيئة التي لا بدّ قد خطرت لي.

وقد اهتمت حبيبتي في الخطاب بجملة أعزّ ما تملك هذه، فوضعتها بين قوسين!

وختمت خطابها المعطّر باصرارها الشديد على القرار الذي اتخذته.

وأضافت أن ذلك لن يمنعها أبداً من أن تعيش بقية حياتها راهبة، تتعبد في محراب حبها الأول العظيم الخالد الذي كنت أنا بطله الوحيد. . !

أنا الذي أسمح لهذه الأفكار السيئة عنها بأن تدخل رأسي وتستقرّ فيه!

■

إنني أحاول الآن أن أتصور.. ما الذي كان ممكناً أن يحدث، لو أنني أخرجت من جيب ذكرياتي خطاب حبيبتي هذا وقدّمته للرجل الطويل، عندما انحنى أمامي في ذلك اليوم الخريفي الحزين البهجة، وطلب مني وهو يفتعل التواضع أن أبتعد عنها ليتزوجها.

لعلّها كانت تبدو فكرة درامية من زمن رجعي، لا تليق بذلك المشهد العصري الذي كنا نمثله معاً في ذلك اليوم.. أنا وهو والبطلة الغائبة.. حبيبتي.

لكنني الآن أدرك، أن هذا الخطاب المغموس في العطر.. الذي تتحدث بعض سطوره عن الرياضة والقفز بساقين مفتوحين.. كان كفيلاً وقتها بأن يخلع عن هذا الرجل ثوب الفارس المنقذ.. الذي ألبسته له حبيبتي عندما رغبت إليه، وهي تصطنع اليأس، أن يقابلني ليخلّصها من براثني.

وكان كفيلاً أن يجعلني أبدو في نظره أقلّ شراً مما صورت له حبيبتي..

بل وأكثر من هذا.. لعلّ ذلك الخطاب كان كفيلاً أيضاً بأن يجعل هذا الرجل الطويل نفسه، يفكر مرتين قبل أن يتمادى في تلك اللعبة البطولية التي كان مزمعاً القيام بها..

لكنني يومها كنت موقناً، من أن قصتنا العاطفية التي استغرقت عامين، لا يمكن أن تنتهي أبداً بهذا المشهد العصري.. وكان الوهم قد صوّر لي، عندما أعطاني هذا الرجل ظهره الطويل ومضى.. أنه ليس أكثر من ورقة.. من تلك الورقات التي ظلّت حبيبتي في الفترة الأخيرة تلعب بها بين الحين والحين.. لتقضي على ترددي.. فأتزوجها..

لكنني الآن أدرك كَمْ كانت تلعب ببراعة فطرية..

وأيّ نوعٍ من الوهم، كنت أيامها أعيش فيه. .؟

■

لو كان ممكناً للناس أن يختار كل منهم نهاية لحكايته. . لاخترت أنا أن تنتهي حكايتي مع حبيبتي بهذا الخطاب الذي وصلني منها بعد «هذا الذي حدث بيننا» بخمسة أيام.

أيّ جو أسطوري كان ممكناً أن يمُنَح لقصتنا لو أنها انتهت فعلاً بذلك الخطاب الأزرق المغموس في العطر. . الذي قررت فيه أن تخرج من حياتي. .

وتختفي هذه الحبيبة كما اختفت قبلها غلامتي الأولى ذات المايوه الأحمر الشديد الضيق. .

وأعود أنا من جديد. . رجلاً لكل النساء. . يرغب باخلاص ضعيف الارادة أن يكون لأمرأة واحدة، كعادة الناس الفاضلين الواضحي التهذيب.

لكن عدداً هائلاً من التفاصيل الدرامية، كان مرسوماً لنا. . أنا وهي. . أن نخوضها معاً، لتؤدّي بنا في النهاية إلى خاتمة طبيعية بعيدة عن الافتعال. . لقصتنا التي بدأت ذات صباح، باهتزازة مفاجئة في سيارة عامة، كنا بالصدفة نركبها معاً. .

■

فلنحاول الآن بدقة أن نختار من هذه التفاصيل ما يجعلنا ـ دون أن نخسر وقتنا ـ نتبين كيف سارت الأمور إلى هذه الخاتمة التي بدأنا بها. .

كنت قد انتهيت من قراءة ذلك الخطاب المُعطّر، وأدركت أن حبيبتي ليست جادة في هذا القرار، بالرغم من مرور خمسة أيام على اختفائها. . فإننا عندما نرغب في الخروج من حياة شخص ما، نفعل ذلك في صمت دون أن نكون بحاجة إلى اعلانه لنفعله. .

إن اعلانه يُعتَبر نوعاً من المماحكة، معناه أن قرارنا قابل للمناقشة والتعديل. .

وكانت حبيبتي تعلم أنني أعلم أين يمكنني الحصول عليها إذا أردتها. . فما أسهل أن أطلب من إحدى زميلاتي، باسم الزمالة العصرية المتعددة الوجوه، أن تدق لها التليفون في البيت بعد الثامنة مساء، وتطلبها من الصوت الذي يرد. . ثمّ تعطيني السماعة. .

لكنني لم أفعل ذلك. .

ففي بادىء الأمر، لم تستطع هذه السطور التي كتبتها حبيبتي عن الرياضة وتأثيرها السحري، أن تمحو من رأسي تلك الأفكار السيئة عن الرجل السابق المجهول.

وقد تلبّستني فكرة مغرورة جعلتني أتصور أنني لو طلبتها فسوف يعني هذا بالنسبة لها أن كلامها عن الرياضة قد أقنعني. .

وفي اليوم السادس أيضاً، لم تظهر حبيبتي. .

وكنت قد بدأت أفكر في مئات البنات المساكين، اللواتي يفقدن هذا الذي فقدته حبيبتي، خلال ملامساتهن الفردية المراهقة قبل النوم. .

وتحت التأثير السحري المخدِّر الساخن أثناء الحمام.

وقد جعلني هذا التفكير أقرب للاحساس ببراءة حبيبتي. . وخلال لحظة خاطفة، خُيِّل لي أنني أظلمها بأفكاري السيئة. . فطلبت من إحدى زميلاتي أن تدقّ لها التليفون. .

وكانت بجوار التليفون لافتة مصلحية علّقها رئيسنا المعقوف الوجه تعلن أن المكالمة لا تزيد عن ثلاث دقائق. .

وفي هذه الدقائق المحددة، تحقق صدق ظني بشأن القرار الذي اتخذته حبيبتي في خطابها. . فقد تبخر هذا القرار خلال همسنا التليفوني المبحوح.

وفي اليوم التالي كنا معاً في تلك الساعة الظهرية الحافلة بالتعب،

نتناول الغداء والبيرة في الكازينو الذي اعتدنا أن نلتقي فيه.

وبعد ذلك بيومين، كنا نغلق وراءنا بخجلٍ مشترك، باب الغرفة المتوحِّدة في بيت السيد زينهم الشديد الهدوء.

وفي ذلك اليوم خلعت حبيبتي حياءها التقليدي وأعطتني نفسها دون اصطناع.. وأعطيتها نفسي ببذخ.

وعندما عبرنا معاً تلك اللحظة المذهولة.

لحظة الفناء الخلّاق التي يتحوّل خلالها الكيانان إلى كيان واحد.. ورعشة واحدة..

اكتشفت من خلال بعضِ التفصيلات الدقيقة التي لا يمكنني الحديث عنها هنا، أن حبيبتي تملك نوعاً من الخبرة يستحيل على الألعاب الرياضية أن يكون لها دخل فيه!

وقد تكوّرت حبيبتي داخل غطاء الفراش..

وعلّقت أنا عيني بالسقف وأنا أفكر فيها بحنانٍ مفعم بالغيظ، مفعمٍ بالرغبة في أن أعرفها على حقيقتها.

وقد عاد الشبح الغامض.
شبح الرجل السابق المجهول..
يقف بيننا.

— ٤ —

مفاتيح بيوت
لا نملكها

يعمل معي زميل اجتماعي كنت أحسد قدرته على الاستجابة الحارة إلى تحبب الآخرين وتوددهم.. الشيء الذي جعله مشدوداً إلى مئات العلاقات الاجتماعية المرحة المبهجة.

وبعد ذلك اليوم بخمسة أيام، كنت أتسلل من ظلام السينما.. وحبيبتي في يدي، قبل أن تُضاء الأنوار ويراها معي شخص يعرفها..

وعند الباب رأيت زميلي الاجتماعي هذا..

كان قد رآنا، فأحنى رأسه لتحيتي وهو يرمق حبيبتي بنظرة جانبية، فأعدت إليه تحيته وأنا أفتح لحبيبتي باب التاكسي.

وفي الصباح التالي دخل زميلي الاجتماعي مكتبي وأخذ يسألني وعلى وجهه ابتسامات مسرحية عن الطريقة التي عرفت بها حبيبتي هذه... ونوع العلاقة التي بيننا.

وحين لاحظ على وجهي علامات الامتعاض، قدّم لي عنها بعض المعلومات الخاصة التي تجعلني أدرك أنه يعرفها.

وعندما أخبرته أننا نتبادل الحب.. سحب مقعداً وجلس أمامي يروي لي بأسلوب عصري.. كيف عرفها..

فمنذ عام كانت له صديقة تعرّف بها في إحدى حفلات الجامعة.. وقد أخذها يوماً إلى بيت واحد من أصدقائه.. لكن هذا

الصديق لم يتركها وحدهما.. فطلب منها زميلي أن تصطحب معها في المرة القادمة إحدى صديقاتها، لتشغل عنهما هذا الصديق..

وترقرقت على شفتي زميلي الاجتماعي ابتسامة درامية، وهو يخبرني أن صديقته في المرة التالية، اصطحبت حبيبتي معها..

وقد سألته وأنا أخفي يأسي.. هل كان بين حبيبتي وبين صديقه هذا علاقة حقيقية؟

لكنه أجابني بشرفٍ، أنه حقيقة لا يعلم.. فقد كانا، هو وصديقته.. يتركانهما معاً!..

■

من ذلك اليوم بدأت أجمع المعلومات عن صديق زميلي هذا.. ظللت أسعى بحذرٍ حتى رأيته.. وقد دفعت ثمن هذه الرؤية، عندما ظلّت صورته العريضة ذات الشارب الكثيف تطاردني بعد ذلك.. وظلّ السؤال الملحّ يدق رأسي!

أيكون هو.. ذلك الرجل السابق المجهول؟

زميلي الاجتماعي أكّد لي بشرفٍ.. أنه لا يعلم.. فقد كانا يتركانهما معاً!

ما الذي كنت أرغب في معرفته أكثر من هذا؟

كانا يتركانهما معاً.. الرجل الكثيف الشارب، وحبيبتي .. معاً..

ألا يكفي هذا..؟
لا شيء أكيد..!

حكيت الحكاية لحبيبتي وسألتها عن الحقيقة.. فغضبت لأنني لا أثق بها.. واختفتْ عني ثلاثة أيام..

وظلّ سؤالي عن الحقيقة حائراً بلا جواب..



في تلك الأيام استولى عليّ شعور مرّ المذاق، بأن ذلك الماضي الغامض يطاردها ويطاردني ويقف بيننا.. وأن باستطاعتنا أن نتخلّص منه، ثمّ يذوب كل منا في الآخر، لو أنها باحت لي به..

وكان اصرارها الشديد الغاضب على الاحتفاظ بالحقيقة بعيداً عن متناولي.. قد ظلّ دائمًا من تلك اللحظة وما بعدها يغلّف صورتها في نفسي بنوع من الغموض، جعلها هي نفسها تبدو لي في أكثر الأحيان غير حقيقية..

غير حقيقة لدرجة أنه يستحيل على مَنْ كان مثلي متقلب المزاج وله بعض التجربة... أن يطمئن إليها..

■

آه.. إنني الآن أدرك كثرة ما أضعت من الوقت في التفكير فيها بهذه الطريقة.

فبتناقض من تلك التناقضات التي تميز الحب، ملأت عليّ هذه الحبيبة الغامضة، مزاجي المختلط المتقلب..

وكان الدم المصري في عروقي، يغذّي حنيني إليها، ويميل بي إلى أن احبها..

لكن رواسب باقية في داخلي، من التركي القديم عثمان آغا، كانت تقف في وجه هذا الميل وتصيح بي غاضبة: كيف تعطي قلبك لامرأة كانت لرجل آخر قبلك.

وكان الماجن الفرنسي المنحدر في دمائي من القرن الثامن عشر، أكثر حكمة من هذين.. فقد نزع بي عن هذه المشاغل النفسية، قائلاً لي في بساطة مقنعة وهو يسخر من رواسب التركي: وما يدريك أن هذا الرجل السابق لم تكنْ له معها نفس المشكلة؟!

دعك من الماضي.. فهي جميلة.. حاولْ أن تستمتع بها..

وهكذا أقنعني الماجن الفرنسي في داخلي.. فأصبحت أعرف حبيبتي هذه، وأتقبلها.. وأتعامل معها.. بطريقة يصعب تفسيرها لَمِنْ كان الحب بالنسبة إليه ما زال مرتبطاً بصورة الامتلاك الكامل النهائي..

وكانت هذه الطريقة الجديدة التي توصّلت إليها.. هي الدواء والمرض في نفس الوقت.. هي المصل والسم.. هي الحماقة التي جعلتني أفقد حبيبتي.. وجعلت حبيبتي تفقد ربع معدتها..؟!

■

في مكان ما، في قلب كل تجربة، هناك خفايا صغيرة دقيقة، لا نستطيع أن نلمسها إلاّ إذا انتبهنا انتباهاً كافياً.. أو أحببنا حباً كافياً.. أو صبرنا صبراً كافياً..

فهَلْ لديكم متسع من الوقت لشيء من هذا؟...

■

كانت حبيبتي في تلك الأيام قد بدأت تبدو شديدة التعلّق بي...

وكان قد أصبح واضحاً لعدد لا بأس به من أصدقائنا، أننا، أنا وهي، نتبادل الحب على الطريقة الحديثة...

وكانت الغرفة المتوحِّدة في بيت السيد زينهم الشديد الهدوء، قد بدأت تستنفد جزءاً كبيراً من راتبي المحدود...

ففي تلك الأيام أدركنا أن الساعات الظهرية الحافلة بالتعب، التي نلتقي خلالها، تصبح أخفّ وطأة في تلك الغرفة.. فأصبحنا نلتقي فيها ستة أيام في الأسبوع..

وبطريقة تلقائية في هذه الأيام، وجدت نفسي أكثر قرباً من هذا النوع من الأصدقاء الذين يمتلكون مفاتيح بيوت يسكنونها بمفردهم.. ويمتلكون أيضاً عواطف تقدير عصرية.. لكل تجارب الحب المحيطة بهم.. الشيء الذي جعل مفاتيحهم الخاصة هذه، تتدلّى بين الحين

والحين، في مواعيد متفق عليها.. من حلقة مفاتيحي..

وهكذا أصبحنا نذهب إلى بيت السيد زينهم مرة واحدة كل شهر على أكثر تقدير، عندما يضطر أحد هؤلاء فجأة.. أن يلغي موعده معي ويذهب إلى بيته..

وأصبح لنا في كل حي من أحياء المدينة غرفة.. نلتقي فيها مرة في الأسبوع..

وأصبح لنا جدول عصري ينظِّم هذا اللقاء..

أيّ صور لاذعة الوقع قد حُفِرت في الذاكرة، لتلك الأيام التي يرتبط فيها بالمكان بالزمن بعشرات التفاصيل الصغيرة التي ترسخ بالذهن لكثرة تكرارها..

فلنقلب في مجموعة الصور من أولها..

السبت: في نهاية شبرا.. بيت من طابق واحد وحديقة مهجورة شاب أخرس يبيع البيرة في ثلاجة محطمة بجوار النافذة التي يقع خلفها سريرنا..

شاب أخرس يولول طول الوقت وهو يطارد الأطفال الذين يحومون حوله يسخرون منه.. فتدخل ولولته اليأس والخوف إلى قلبينا بين الحين والحين ونحن مشغولان بشؤوننا.

وكان يزعجنا في ذلك البيت، انتظارنا الطويل للأتوبيس الذي ينقلنا إليه..!

الأحد: في قلب امبابه المزدحم.. شقة في الطابق الثالث من بيت قديم.. وصديق من البلدة يسكن الشقة مع صديق آخر لا أعرفه..

صديقي موظف، والآخر تلميذ.. والشقة لا تتعرّض للنظافة بانتظام، فخلف الباب كومة دائمة من علب السجاير الفارغة، والفضلات..

وغرفة صديقي ليس لها مفتاح، الشيء الذي ظلّ يملأ قلب حبيبتي بالتوحش.. فليس سهلاً أن تكون على طبيعتك، وخارج الغرفة مراهق صغير يروح ويجيء..

وبعد أن قمنا بزيارة تلك الغرفة خمسين مرة، في خمسين أسبوعاً، اكتشفت حبيبتي وهي تفتح الباب فجأة، أن التلميذ المراهق واقف خلفه يطلّ علينا من ثقب صغير.. فلَمْ نعد نذهب إليها من ذلك اليوم..

الاثنين: في ذلك الجانب العريق من المدينة، جاردن سيتي، سلم خلفي من الرخام في حديقة أنيقة، يؤدّي إلى باب من خشب ثمين مزين بالنحاس، مغلق على صالة عصرية تضم الخمر والموسيقى وثلاجة الطعام.. ودهليزاً مسحوراً يؤدّي إلى غرفة خرافية الألوان للنوم.

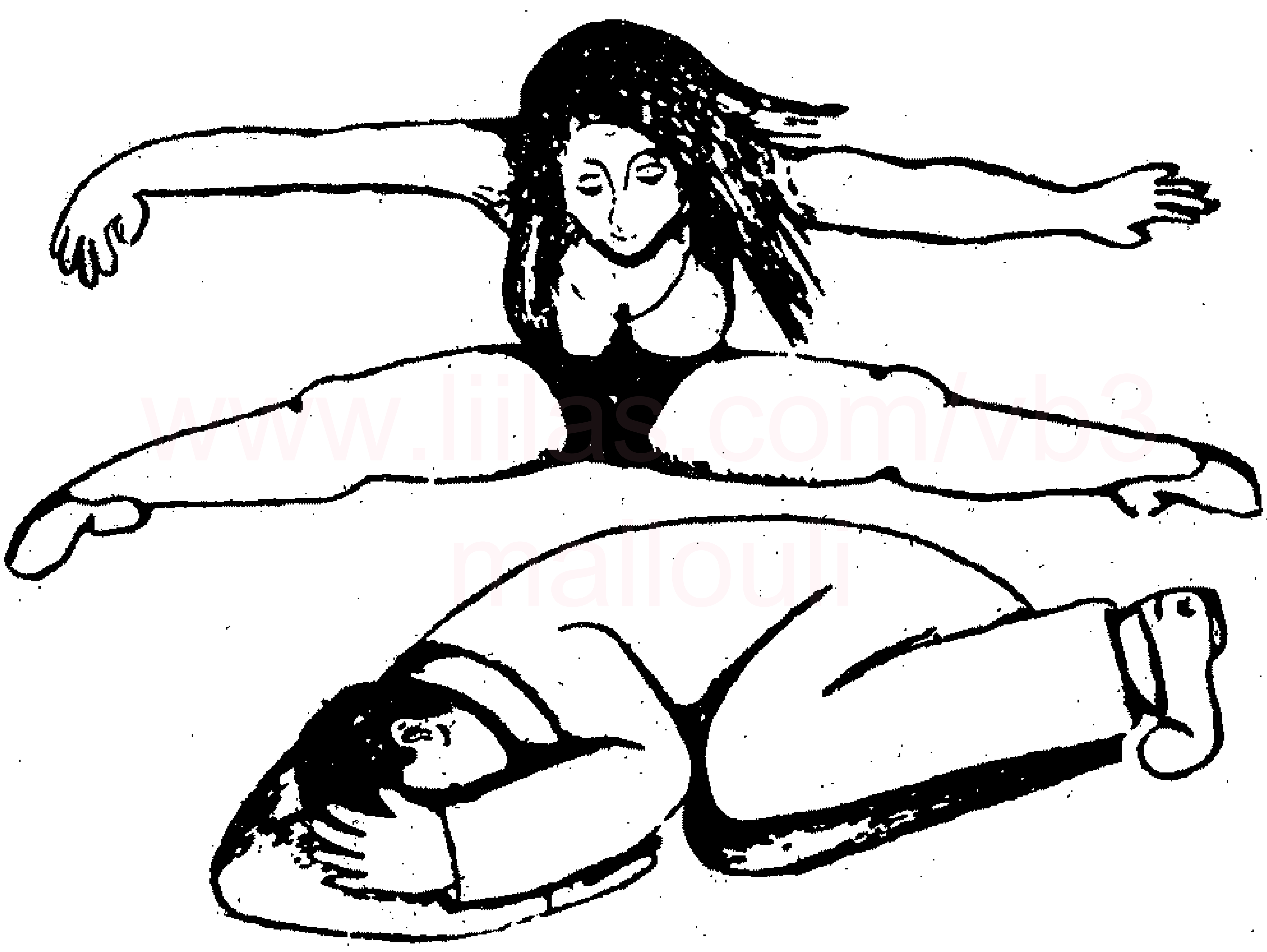
قالت لي حبيبتي قبل أن تنتهي قصتنا ببضعة أسابيع، إنها أمضت معي في هذه الجنة الصغيرة أسعد أيام حياتها على الاطلاق..

وإنني إذْ أستعيد الآن من الذاكرة صور تلك الأيام الحافلة بالبهجة والراحة الميسورة في هذه الجنة الصغيرة، أشعر بوخز شديد الألم في قلبي تجاه صديقي الناعم الشعر الذي كان يعيرني مفتاحها.. فإن هذا الصديق الذي كان يفخر بيننا دائماً بأنه يمتلك هذه «الجارسونيرة» حسب التعبير الأوروبي، لم يكنْ يستطيع ـ وقد اكتشفت ذلك بالصدفة ـ أن يكون رجلاً مع أيّة امرأة يصحبها إلى هناك.. وقد استأجرها ليخفي هذه الحقيقة عن الناس..

وكان يكتفي بأن يدير مفتاحها حول اصبعه، بيننا بفخر..!

الثلاثاء: في السينما.. نشاهد فيلماً. ونتنسم ونحن نشاهده بقايا العبير العالق بجسدينا من بهجة يوم الاثنين..!

الأربعاء: بيت في الجيزة.. صور وتماثيل. وتراب كثير على الجدران.. وسرير عتيق من طراز لويس الرابع عشر، بقايا عز قديم كانت تعيش فيه أسرة الصديق، صاحب هذا المكان.. وغطاءٌ للفرش



مليء ببقع الألوان كأنه صورة تجريدية لرسام مجنون..

في هذا المرسم الغارق في الضوء كانت حبيبتي تحب أن تتربّع على قمة طبيعتها محاولة أن تقلِّد التماثيل التي حولنا!

الخميس: كان يوماً ضائعاً في أغلب الأحيان.

الجمعة: اجازة في الجامعة. وحبيبتي لا تخرج من البيت!

ماذا بقي في مجموعة الصور؟
لقد كانت المدينة كلها فراشاً لقصتنا العاطفية!
لقد عشنا.. أنا وهي.. على هذا البرنامج عامين كاملين..
ورغم هذا فانني أسأل نفسي الآن:
هل كان ما بيننا حباً..؟

إن الحب يكون أكثر صدقاً، عندما يكون التعاطف والفهم منبعه.. وليس الشهوة.. وهذا هو معنى الامتلاك الكامل النهائي..

أن يتصارع الانسان بكل أحاسيسه في سبيل الاستئثار بصفات الآخر..

أن يكافح في سبيل الحصول على الكنوز الباهرة في شخصية الآخر..

وصراع كهذا قد يكون مدمِّراً.. وفاشلاً.. ولكنه عندما ينجح، يحقق الحب الحقيقي الدائم.. الذي تذوب فيه كل الأعاصير أمام الفهم المتبادل..

ولا يسعني الآن سوى أن أرى ما كان عند حبيبتي من مزايا شخصية كان ممكناً أن أحبها.. وأن أصارع في سبيل الاستئثار بها.

لكننا..
ويا للخجل..

كنا نصارع أنا وحبيبتي، ليخفي كل منا عن الآخر حقيقته قدر

الإمكان.. وراء ألوان الشهوة القاتمة النسيج!

لتخفي هي، أنها قد عرفت رجلاً أو رجالاً آخرين قبلي..
ولأخفي أنا، أنني أطمئن إليها.. وأنني فقط، أستمتع بها..

ولعلّها قد شعرت في تلك الأيام بأنها لم تحصل عليّ حصولاً كاملاً.. وأنني لم أسلم لها نفسي كلية بعد.

ولعلّني كنت أبدو لها في أغلب الأوقات طليقاً من القيود.. وعندي ملء الحرية لأن أتجول وحدي وقتما أشاء.. وأن قلبي مايزال حراً..وكان محتوماً عليها كأنثى من طبيعتها حب التملك، أن تحاول السيطرة على هذا الجزء من نفسي الذي كان يبدو لها بعيد المنال..

وقد جعلها هذا النوع من الحب تتأرجح بين اليأس واللهفة لأنها تعلم أن وجودها ليس ضرورياً لوجودي..

إن رغبة التملك هذه، إذا ما تُرِكت محرومة، فإنها قد تملك على الانسان روحه وتهيمن عليه.

وما أصعب أن نحلل هذا النوع من العلاقات.. فإن الحب في مثل هذه الحال، يصبح ستارة يخفي الجسد وراءها أغراضه..

■

الآن أدرك وأنا أتأمل التجربة من فوق هذا الزمن الذي راح، سر هذا التفاني الذي كانت تمنحني به شهواتها.

فقد كانت تعذِّبها الرغبة المهيمنة على روحها لتمتلكني.

ـ ٥ ـ

الخروج
من عنق الزجاجة

ذات يوم أخرجت لي حبيبتي من حقيبتها جريدة صباحية وفتحتها على إحدى الصفحات، ثم وضعتها أمام عيني بأهمية شديدة، فقرأت فيها رأياً لأحد الأطباء، يقول إن الأقراص التي تستخدمها دول كثيرة لمنع الحمل، تسبب في بعض الأحيان ظهور علامات الرجولة على المرأة التي تتعاطاها.. فينبت لها شارب خفيف.. ولحية خفيفة!

وعندما لاحظت حبيبتي أنني انتهيت من قراءة ما تريد، ضربت الأرض بقدمها في عناد، وأعلنت أنها قررت أن تمتنع عن استعمال تلك الأقراص..

ملحوظة: لم تكنْ تلك الأقراص قد أصبحت شائعة بعد!

فأعدت الجريدة لحبيبتي وأنا أضحك منها.. فقد كنت أعلم جيداً أن العيب الوحيد لهذه الأقراص هو ارتفاع سعرها.. فإن عشرين قرصاً منها تُستعمَل كل شهر. كانت تكلفني مساحة لا بأس بها من مرتبي.

ولعلّها كانت لفتة مقصودة من حبيبتي.. لتجعلني أفهم، أن بامكاننا الاستغناء عن هذه الأقراص والاستفادة من هذا المبلغ.. لو أننا تزوجنا..

لكنني لم أفهم، ورحت أوضح لها، مستعيناً بمعلوماتي البيولوجية المتواضعة، كيف أنه يكاد يكون مستحيلاً، أن تنبت لها ذقن وشارب في أي يوم من الأيام..

وكيف أن هؤلاء الأطباء المتهوّرين يندفعون أحياناً في القاء أمثال هذه التصريحات التي تبلبل الرأي العام.

ولعل حبيبتي وقتها قد اقتنعت.. ولعلّها لم تقتنع..

لكننا، بعد ذلك بأيام، كنا في الجنة الصغيرة ذات السلم الرخامي والباب المزين بالنحاس.. جنة يوم الاثنين، التي لا يملك صاحبها الناعم الشعر، سوى أن يدير مفتاحها حول أصبعه بفخر..

وفي ذلك اليوم لاحظت أن حبيبتي تتصرّف معي.. وكأنها قد بيتت النية بينها وبين نفسها.. على أن تلتهمني..

كانت تبدو وكأنها ترغب في أن أذوب تماماً.. وأتلاشى.. وبهذه الطريقة الغريبة تكون قد امتلكتني!

وقد غادرنا الجنة الصغيرة في ذلك اليوم، متأخرين عن موعدنا المعتاد ساعة ونصف..

وبعد ذلك اليوم بشهرين.. كنا في شبرا.. بيت السبت ذي الطابق الواحد والحديقة المهجورة. وقد طلبت حبيبتي نوعاً شديد التأثير من الخمر، فأحضرت لها زجاجة منه، شربت نصفها، وظلّت ترقص وتتطوّح في الشقة الواسعة.. وتفتعل معي نوعاً من المداعبات يدفعني لمطاردتها.. فتجري لاهثة ساخنة الخدين.. وشعرها الأسود الكثيف يتطوّح مخموراً على كتفيها..

كنت قد شربت من هذه الخمر التي لا أحبها، بضع كؤوس معها.. ورغم هذا فقد بدت لي تصرفاتها في ذلك اليوم، شديدة الغرابة.. وكان بائع البيرة الأخرس، يولول في الخارج بين الحين والحين، فتملأ ولولته قلبي بالخوف واليأس.

فأسندت ظهري إلى الحائط، وسددت أذني بكفي، وطلبت منها أن تهدأ وتخبرني عمّا بها..



فتوقفت حبيبتي عن بهجتها المفتعلة فجأة.. وأخذت تقترب من الفراش ثمّ ألقت بنفسها جالسة عليه، ورأسها إلى الأرض..

وفي هدوء شديد.. وبعبارات بسيطة واضحة.. أخبرتني حبيبتي أنني سوف أصبح أباً.

■

كانت الضجة اللاهثة التي ملأت حبيبتي بها الغرفة قد هدأت.. ولسبب لا أدريه كفّ الأخرس الذي يبيع البيرة عن العويل.. وظللت أنا مستنداً إلى الحائط وحبيبتي أمامي على حافة الفراش ورأسها مُنكّس إلى الأرض.. وقد تعلّقت في الفراغ الذي يفصل بيننا تلك الكلمات البسيطة التي قالتها بهدوء شديد..

وقد أطبق على الغرفة صمت مشوش.. كأننا كنا، أنا وحبيبتي نجري متجاورين في شارع طويل، محاطٍ بالزهور من جانبيه.. ووجدناه فجأة مغلقاً في وجهينا فاصطدمنا به.

ثمّ رفعت حبيبتي وجهها وظلّ كل منا يحدِّق صامتاً في الآخر كأنما يبحث في وجهه عن منفذ.

فهكذا وجدنا أنفسنا فجأة..

علاقة عاطفية معزولة عن الأهل والناس..

في عنق زجاجة.. وعليها أن تخرج منه.

وفي هذه اللحظات المشوشة الصمت، العامرة بالحيرة كأنها سنة بأكملها كان حتماً أن يتقرر مصير هذه العلاقة..

وكان حتماً أن يتشكّل هذا المصير، حسب الطريقة التي سوف نتبعها للخروج من ذلك المأزق..

لقد أخذت حبيبتي في صدري وقلت لها بحماسٍ أدهشني: احتفظي به!

لكن حبيبتي ابتسمت في يأسٍ وهي تغمغم:

نحن لم نتزوج بعد!

في تلك اللحظة اللعينة، جعلتني كلمة زواج أفكر مثل باقي الرجال إلى حدٍ سخيف..

جعلتني أتصور أن حبيبتي تفتعل هذا المأزق، لاسارع وأتزوجها.. وهكذا.. بطريقة شيطانية وجدتني أقترح عليها أن نتخلّص منه.. وبعد ذلك نتزوج في هدوء..

وقد وافقتني حبيبتي فشعرت بالراحة..

ولم أكن أعلم ساعتها أنني في تلك اللحظة التي قدّمت لها فيها هذا الاقتراح.. قد فقدتها..!

■

آه..

ها هي النهاية تقترب في سرعة.. وقبل النهاية مجموعة ضرورية من المقدمات.

صور ضبابية متشابكة، لمرض مفتول العضلات في صيدلية قديمة في شارع خلفي.. وابرة رفيعة تدس في ساق حبيبتي سائلاً غامضاً.. ورأس حبيبتي على كتفي.

محاولة فاشلة.. ثمّ..

امرأة معروقة الذراعين متصابية ومعها حبيبتي، في غرفة النوم الخرافية الألوان.. في جاردن سيتي.. والباب مغلق عليهما، وأنا في الصالة العصرية أدخن القلق.

محاولة أخرى فاشلة.

ثم ثلاث أو أربع محاولات، كان الفشل في كل منها يدفعنا

للمحاولة من جديد.. بـالحاحٍ أعمى.. للتخلّص من هـذا الجنين الدخيل!

ليتني كنت أستطيع أيامها أن أرى الكراهية وهي تولد في قلب حبيبتي؟..

لكن طاعتها الدائمة.. ووجهها الضاحك.. كانا دائمًا يخفيان الحقيقة عني!

وأخيراً..

تلك الصورة الخالدة في ذاكرتي.. ذات يوم والنهار ينسحب.. وأنا وحبيبتي نقف متلاصقين في صيدليـة مهجورة.. وطبيب سمـين عجوز ينظر إلينا ضاحكاً ويداه مشغولتان بالدواء الخاص الذي يحضّره لنا.. وبين الحين والحين يعلن اعجابه بتعقلنا، واهتمامنا بفكرة تحديد النسل، التي يهملها عدد كبير من الأزواج.. وكنا قد أوهمناه أننا زوجان حديثان.

في ذلك اليوم لاحظت فجأة.. ولَمْ أكنْ قد لاحظت ذلك من قبل.. أن لون حبيبتي قد أصبح داكناً كلون انسان لا حظّ له في أن يكون محبوباً.. وكـانت قد أصبحت نحيلة هشـة لأنها قد فقـدت شهيتها للطعام.. وقد ناولنا الطبيب العجوز تلك الزجاجة المجهزة بعد أن لفّها بعناية.. وابتسم ابتسامة سامة وهو يخبرنـا أن جرعـة واحدة ستـأتي بالمفعول.

ونحن نعطي للصيدلية المهجورة ظهرنا في ذلك اليوم.. كانت حبيبتي شديدة الانكسار.. وكنت أنا مشوّش المشاعر..

وبين لحظة وأخرى كنت أضغط كفّها النحيل في كفي بحزنٍ..

وقبل بيتها بقليل كان علينا أن نفترق، فوقفنا وحبيبتي تنظر في وجهي بعينين قاسيتين.. فلَمْ أجرؤ على أن أرفع عيني إلى عينيها..

خُيّل إليّ في لحظة خاطفة أن أحملها بين ذراعي على طول الشارع

المؤدّي إلى بيتها.. وأصعد وأنا أحملها إلى الطابق الرابع الذي تقيم فيه.. وأدق الجرس وأدخل بها الحجرة التي طالما وصفتها لي، حيث يجلس والدها على المقعد المائل، ونصفه الأسفل ملفوف بعناية في بطانية حمراء، ووجهه في صحيفة المساء.. ثمّ أطلب منه وأنا راكع على ركبتي أن يبارك زواجنا.

لكنني للأسف.. في هذا الموضوع بالتحديد.. كنت أشبه غالبية الرجال.. كنت أفكر وأتألم، ولكني كنت أفتقر إلى التصميم.

كنت أفتقر إلى ارادة التنفيذ التي تعطي لكلمة رجل معناها الحقيقي..!

■

وفي اليوم التالي لم تظهر حبيبتي أثناء النهار..

وفي المساء أصابني القلق فطلبت من زميلتي المعتادة أن تدق لها التليفون في البيت.

وقد رأيت الانزعاج على وجه زميلتي وهي تستمع إلى الصوت الذي يجيبها من الطرف الآخر.

ورأيتها تردد اسم مستشفى كبير ثم تسحب ورقة وقلمًا وتدوّن الاسم..

ثمّ أملاها الصوت رقمًا لاحدى الحجرات.. كتبته وهي تتمتم ببضع كلمات تُقال في مثل هذه المناسبات.

وأغلقت زميلتي السماعة ثمّ ناولتني عنوان المستشفى وفي عينيها حزن لا يخصها.

حبيبتي استيقظت في الصباح، وبعد أن غسلت وجهها بصقت دماً.

الطبيب الذي يعرفونه جاء فوراً وفحص حبيبتي، فاشتبه في وجود قرحة بالمعدة، فطلب نقلها إلى المستشفى الخاص، إلى السرير الحديدي

البارد، الذي يشبه إلى حد كبير ذلك الآخر في الغرفة المتوحِّدة ببيت السيد زينهم.. والذي عرفت عليه جسد هذه الحبيبة لأول مرة.

لقد رقدت حبيبتي نحيلة هشّة، على هذا السرير المحاط بعلب الأدوية وأنابيب نقل الدم، شهراً كاملاً..

والآن.. كيف أستطيع بقدرتي المحدودة أن أصف لكم بالكلمات، شهراً كاملاً من العذاب.. لي.. ولها..؟

بالنسبة لها كانت التحليلات وصور الأشعة قد أكدّت وجود القرحة..

وقال الطبيب إنها ولِدت في معدتها منذ بضعة شهور.. أربعة أو خمسة على الأكثر..

وراح يسأل أفراد العائلة عن الأشياء التي كانت تقلق حبيبتي في هذه الفترة، فقالوا إنها كانت خائفة من الامتحان!

فقرر الطبيب استئصال الجزء المصاب.

وبالنسبة لي كان شعور بالذنب قد بدأ يولد في داخلي.. ومئات من الأسئلة السوداء بدأت تدق رأسي..

هل كانت علاقتنا تقلقها إلى هذه الدرجة القاتلة.

هل أصاب دواء الطبيب العجوز معدتها..؟!

إنني أبتسم بمرارة الآن، وأنا أتذكر هذا السؤال الأخير.

فقد عرفت بعد ذلك أن حبيبتي لَمْ تتناول هذا الدواء..؟ وأنني لم أكنْ سأصبح أباً..!

وأن حبيبتي كانت قد اخترعت تلك الأكذوبة لتختبر عواطفي..

لتشدّ استجابتي لتعلقها الشديد بي..!

لكنني ـ وأسفاه ـ في تلك اللحظة التي كفّ فيها الأخرس عن

العويل، صدمتها باقتراحي الجبان..

ولكم تروِّعني الآن، بطولتها وهي تستجيب مرة بعد مرة.. لمحاولاتنا الفاشلة في اسقاط هذا الحمل الوهمي..

وتتحمل المهانة والألم حتى لا تبدو كاذبة، وتنكشف لي محاولتها البيضاء لتأسر عواطفي..!

ـ ٦ ـ

الرجل الطويل
ينهي المسألة

والدة حبيبتي كانت بجوار سريرها دائماً . .
والوالد يذهب إليها آخر النهار . .

والأقرباء لهم حرية زيارتها في أي وقت كان . .

لكن الغرباء أمثالي من المعارف والزملاء . . فإن أكثر من زيارتين في الأسبوع قد يثير الارتياب؟

وهكذا كنت ــ بحذر شديد، وباصطناع معاذير لا يلتفت إليها أحد ــ أستطيع أن أتردد على حبيبتي في الأسبوع ثلاث مرات . . تستغرق الواحدة منها نصف ساعة على أكثر تقدير، نتبادل فيها بضع كلمات لا تثير الانتباه، وأختلس كفّها الشديد النحول في كفي وأربِّت عليه في حنان.

ففي نطاق هذا الحصار الذي كان مضروباً حول حبيبتي . . تلك الأسوار من الرعاية العائلية لفتاة الأسرة المريضة . . لَمْ نكن أنا وهي نستطيع الكلام في شيء، وما كان أثقله على قلبي أن أنظر لهذه الحبيبة الهشّة التي لا يكاد جسدها المريض يظهر من الفراش، هذه الحبيبة التي كنت واثقاً من أنني أمتلكها أكثر مائة مرة من أي شخص مَمَّنْ يحوطون بها، أنظر إليها فقط، دون أن أتبادل معها ما أريد من كلام.

■

الآن أدرك أن الحب ليس أعمى، الغيرة هي العمياء.

ففي تلك الزيارات القصيرة المقتضبة، سمعت اسم الرجل الطويل يتردد في غرفة حبيبتي عشرات المرات دون أن أتوجّس الشر من ناحيته على الاطلاق.

ولَمْ يجل بخاطري أبداً أن كل الظروف والملابسات التي أحاطت بعلاقتنا، كانت تهيىء هذا الرجل نفسه، ليضع خاتمة مهذبة لهذه العلاقة!.

كان الكارت الذي يحمل اسمه، يتجدد كل يوم مع سلّة الزهور المرسلة بعناية..

ومن هذا الكارت عرفت أنه طبيب..

وفي زيارة أخرى أدركت أنه نفس الطبيب الذي فحصها ونصح بنقلها إلى المستشفى الخاص..

وكانت الخدمات الصغيرة التي تثير انتباه العائلات المتوسطة في مآزق المرض هذه، تُذكَر باستمرار في تلك الغرفة مشفوعة باسم الرجل الطويل نفسه..

وكانت حبيبتي في تلك الأيام قد بدأت تنقنق باسمه في لذّة.. كأنما تهددني به..

وقد سألتها عنه مرة، فقالت إنه واحد من الأقرباء..

■

في أيام العذاب هذه، وقعت في المحيط الاجتماعي الذي حولي حادثة صغيرة استولت على تفكيري إلى حدٍ كبير. فقد انفصل واحد من أصدقائي عن زوجته بالطلاق ولم يكنْ زواجها قد استمرّ سوى بضعة شهور..

كان هذا الصديق من ذلك النوع من الرجال الذي يبيح نفسه لكل النساء، وكانت له صديقة تزوره بانتظام.



وفي اللحظة التي أعلن فيها خطبته لاحدى بنات العائلات، كانت هذه الصديقة ما تزال تعيش معه تحت سقف واحد..

وضع غريب كنت أفسِّره كنوع من الصراع بين العقل والعاطفة. العقل الذي يطلب للبيت زوجة مصونة ذات عفافٍ.. والعاطفة التي تشده لهذه الأنثى التي تملك المقدرة المباشرة عن أن تأسره باستمرار، بخبرتها الأنثوية الناضجة..!

وقال لي هو إنه لم يشأ أن يتخلّص من صديقته هذه في ذلك الحين، لأنه لم يكنْ يستطيع أن يلتقي بخطيبته خارج نطاق تقاليد عائلية شديدة الصرامة، لا تسمح للخطيب من خطيبته بأكثر من زيارتها في البيت.. بينما تسمح لهذه الخطيبة بكامل حريتها طوال النهار مع الأصحاب والزملاء..!

وبعد أن تزوّج صديقي من خطيبته هذه بستة شهور.. اكتشف أن في حياتها رجلاً كانت تعرفه قبل أن تُعلَن خطبتها إليه.. كانت آثاره في روحها أعمق، فلَمْ تستطعْ أن تنساه.

وهكذا طلّقها صديقي..

وقد كان لهذه الحادثة فضل القضاء على ترددي، فقررت أن أتزوج حبيبتي على الفور.

■

كانت قد غادرت المستشفى بعد أن تركت فيه:
ربع معدتها المريض..
ترددي الأحمق..
جريمتي..

وأخذتها العائلة في رحلة خاصة للاستشفاء لمدة أسبوع.. ثمّ أعادتها إلى البيت.

وقد زرتها ــ باسم الزمالة الجامعية ــ في البيت مرتين.. وأخبرتها

عندما سنحت لنا الفرصة.. أنني قد بدأت أتخذ بعض الإجـراءات للحصول على مبلغ من المال للزواج.

فابتسمت حبيبتي..

وكانت تلك هي المرة الأولى التي رأيتها تبتسم فيها منذ تلك اللحظة التي أعطينا فيها ظهرنا للصيدلي العجوز ونحن نحمل الدواء الخاص.

وبعد ذلك بيومين، خرجت حبيبتي.. فالتقينا.
في نفس الكازينو الذي تعوّدنا أن نلتقي فيه..

وجلسنـا هناك ثـلاث ساعـات.. نأكـل.. ونشرب البيـرة.. ونخطط في أوراق أمامنا مئات الترتيبات لحياتنا الزوجية القادمة.

وقد غادرنا الكازينو ويد حبيبتي في يدي.

وفي عينيها نظرة غامضة.. لَمْ أدرك في ذلك الحين أنها غامضة.

■

وفي اليوم التالي دُقَّ باب مكتبي ودخل رجل..
كان طويلاً، فانحنى وهو يقدِّم لي نفسه.

كان يحمل نفس الاسم الذي أحمله أنا.. وتلك مفارقة تخفف من توترنا الدرامي.

لَمْ أكن أعرفه، لكن حبيبتي كانت قد تعوّدت أن تنقنق باسمه في لذّة، كأنما تهددني به: «الطبيب قريبنا»..!

طلبت له القهوة فرفضها بأدب..
ثمّ طلب مني أن أبتعد عن حبيبتي لأنه سيتزوجها..
وقد سارع فأخبرني أنه يتشرّف بلقائي بناءً على رغبتها.
وأخذ يتحدث عنها بثقة مبالغ فيها، كأنه يعرفها أكثر مني.

ومن خلال حديثه أدركت أن حبيبتي قد أضافت إلى صورتي في

ذهنه مخالب وأنياباً. . وجعلتني وحشاً يملأ حياتها بالتعاسة دون أن تستطيع الخلاص منه. . !

فأخفيت مخالبي المزعومة وشددت على يده.

وأحكمت قناع الكبرياء على وجهي وأنا أتمنى لهما السعادة معاً. .

وهكذا تّمت المسألة بطريقة متحضرة. . محاطة بكل مظاهر الكبرياء والعظمة.

وعندما أعطاني ظهره الطويل ومضى. . شعرت أني أكاد أنشق إلى نصفين. . من الغيظ!

■

في العصر الشكسبيري كان ذلك كافياً لي كي ألقي بالقفاز في وجه هذا الرجل الطويل وأدعوه للمبارزة. .

وفي الروايات المغرقة في السوداوية غالباً ما يذهب البطل ويعلّق رقبته في حبل بسقف غرفته. . أو يشرب السم. .

أمّا الكتّاب الأكثر شفقة، والأبعد نظراً، فإنهم في مثل هذه الحالات يغرقون أبطالهم في الخمر والقمار.

ولّما كنا في عصر أكثر تقدماً من الناحية الشكلية. . فقد نصحني بعض الأصدقاء بتغيير الجو. . «اذهبْ إلى الريف. . اذهبْ إلى الشاطىء. . خذْ لك اجازة اسبوعاً».

وكانت المسألة قد وصلت إلى رئيسي في العمل ــ ويسعدني هنا أن أنوّه بالحفاوة الاجتماعية التي استُقبِلت بها مشكلتي العاطفية هذه ــ فقد عاملني الرجل برقة، ونصحني أن أغرق نفسي في العمل. . «العمل فقط يا ولدي. . هو الذي يبقى للانسان. . »

قلت لنفسي: حبيبتي كانت تسير بجواري فدهمها رجل طويل. . !

حادث عَرَضي من حوادث الطريق. .

فما الذي يمكنني أن أفعله؟
وهكذا استطعت أن أُكسب المسألة بعض البساطة..
ولَمْ أعد أرى حبيبتي.
وبعد شهرين سمعت أنهما قد تزوّجا.

■

وبهذا أيها السادة.. تنتهي قصتنا..

نحن الذين خلال اهتزازة مفاجئة في أوتوبيس متحشرج التقينا..

إنني أجلس الآن هنا..
مجرد رجل أعزب..
يدخن ذكرياته ويشرب خمرة بيضاء ويثرثر.

ورفيقي في هذا المكان ايحاءات عديـدة مشتهاة من مـاضٍ لا يستطيع أن يشاركني فيه أحد.

ولَمْ يعد بامكان الزمن نفسه أن يحرمني منه.
فقد تحوّلت حبيبتي من صورة في الخيال إلى قلادة منقوشة ألبسها فوق قلبي..

إلى ثمرة حزنٍ سوداء لامعة تتدلّى داخل هذا القلب.

■

هذا هو الصباح يولد في نافذتي.
صباح جديد تماماً، رغم أنه يشبه غيره.

زجاجة الخمر البيضاء فارغة تتلوى على جانبها الدائـري تحت مقعدي.

وحبات المطر قد جفّت على زجاج النافذة.

حادث النصف متر

تّمت المسألة بطريقة متحضرة محاطة بكل مظاهر الكبرياء والعظمة.

كـان طويـلاً، فـانحنى وهو يقدِّم لي نفسـه... ثم طـلب مني أن أبـتعـد عـن حبيبتي لأنه سيتزوجها!

لم أكنْ أعرفه... لكن حبيبتي كانت قد تعـوّدت في الأيام الأخيرة أن تنقنق باسمه في لذة، كأنما تهددني به..

الثمن ١٢ ليرة لبنانية أو ما يعادلها

دار التنوير للطباعة والنشر ص . ب : ٦٤٩٩ - ١١٣ بيروت - لبنان

دار المثلث للتصميم والطباعة والنشر ص . ب : ٥٨٠٣٠ - ١١٣ بيروت - لبنان